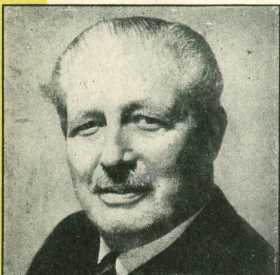




مذاهب وشخصيات

ماكملان

شخصية سياسية



MACMILLAN

Portrait of a Politician

By EMRYS HUGHES



بقلم ايمرى هيوز
عضو مجلس العموم البريطاني

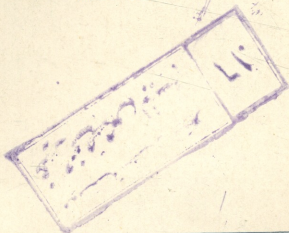
ترجمة حسين الحوت
مراجعة حمدي حافظ



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع مصيد - روض الفرج

تلفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٤
١٠٨١٤ - ١٠٥٨٤ }



مذاهب و شخصيات

ماكيلان

شخصية سياسية



بقلم ايهرى هيور
مترجم من الفرنسية الى العربية
ترجمة حسين الحوت
مراجعة حمدى حافظ

تقديم

أيمرى هيوز ، مؤلف هذا الكتاب، صحفي بريطاني وعضو عمالي بمجلس العموم عن جنوب مقاطعة أيرلاند جلترا ؛ وهو من أشهر نقاد ماكميلان البرلمانيين ، كما أنه من أوسع الكتاب البريطانيين معرفة بماكميلان ونشأته وأسرتة وحياته الخاصة والعامة ، ويعتبر مؤلفه الذي بين أيدينا ، والذي أخرجه تحت عنوان «شخصية سياسية» أول ترجمة مستفيضة لرئيس وزراء بريطانيا الحالي ، ودراسة هذا الكتاب هي في الواقع دراسة لتطورات الحوادث في بريطانيا ، في فترة من أشد فترات حياتها خطرا ، وقد يكون في هذه الفترة الحرجة تقرير مصير بريطانيا نهائيا ، وانزواؤها في ركن من سجل التاريخ .

في هذه الترجمة لحياة هارولد ماكميلان ، يعود بنا المؤلف الى الماضي البعيد ، حين اضطر جد ماكميلان الى الهجرة من موطنه في اسكتلندة ، الى لندن ، تخلصا من الفقر ، وبعد سنوات طويلة من الكفاح ، استطاع هذا المهاجر الاسكتلندي ، أن يثبت مركزه في ميدان الطباعة والنشر ، وأن يؤسس دار ماكميلان ، وهي من أكبر دور النشر العالمية .

ويتناول المؤلف حياة هارولد ماكميلان السياسية ، منذ بدايتها يوم كان بين الشباب التقدمي في حزب المحافظين ، وكيف أنه ثار على ستانلي بولدوين ونيفيل تشمبرلين ، اللذين تزعما المحافظين في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية . وعودته بعد ذلك الى التآليف والنشر ، وهو في ذلك يتحدى ما استقرت عليه الأوضاع حينذاك ، في ميداني السياسة والاقتصاد .

وينتقل بنا المؤلف بعد ذلك ، الى موقف المعارضة الذي اتخذه ، ماكميلان ، من وزارة العمال ، التي تولت حكم بريطانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية وظهوره كزعيم من زعماء حزب المحافظين بعد إعادة تنظيمه ، ومساهمته في مهاجمة حزب العمال ، مما أدى الى تثبيت مركز المحافظين في الحكم ، طوال العقد السادس من القرن العشرين .

ويتحدث المؤلف عن الدور الذي قام به ماكميلان ، كوزير للإسكان . ووزير للدفاع ، ثم للخارجية ، ثم للمالية ، وأخيرا دوره الكبير في الشئون الداخلية والخارجية ، بصفته رئيسا لوزراء بريطانيا .

ولقد صاحب المؤلف هارولد ماكميلان ، في أثناء زيارته الشهيرة للاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٩ ، وضمن مؤلفه فصلا عن المحاولات التي قام بها ماكميلان ، في خلال محادثاته مع خروشوف ، لتسوية الخلافات بين الشرق والغرب .

ويقول إيمرى هيوز ، انه على الرغم من أن كتابه قد صيغ في عبارات تنسم أحيانا بالنقد ، بل التهكم ، فانه قد استند في اعداده الى معلومات صحيحة ، مستقاة من وثائق لرجال السياسة ، من الجانبين الشرقي والغربي . وإذا كانت الصورة التي قدمها عن ماكميلان ، كرجل سياسة ، تثير كثيرا من الجدل ، فانها في الوقت نفسه بعيدة عن أن تكون صورة شاذية مملّة ، بل انها على العكس من ذلك تثير اهتمام القارئ كلما توغل في الموضوع .

يقدم المؤلف استهلالا طريفا ، ينقل فيه ردا للكاتب العالمي الساخر ، برنارد شو ، اذ سئل عن السبب الذي دفعه لتأليف مسرحية عن جان دارك ، فقال شو على الفور : ذلك لكي أنقلها من قلم جون درنكوتز . ولعل إيمرى هيوز أيضا ، قد سبق الى اعداد ترجمة ، لهارولد ماكميلان ، كي ينقذه من قلم راندولف تشرشل ، الذي كتب تاريخ حياة انطوني ايدن . وبذلك أثار حول نفسه عاصفة من نقد الاعضاء المحافظين ، في مجلس العموم البريطاني .

وهنا يقول المؤلف : ان الكتابة عن حياة ايدن ، كرجل سياسة ، أسهل بكثير من الكتابة عن ماكميلان ، ذلك أن حياة ايدن ، ليس فيها من العمق والغموض والتعقيد ، مثل ما في حياة ماكميلان .

وهو يستشهد بحديث جرى بينه وبين أحد الدبلوماسيين الأجانب ، فقد وجه إليه سؤالاً ، عن رأيه في ماكميلان ، وكان رد هذا الدبلوماسي ، أي ماكميلان تقصد ؟ ، فماكميلان يتغير بتغير الزمان والمكان والظروف المحيطة به !

ويعلق المؤلف على ذلك قائلا ، انني لن أتعرض لماكميلان في تغيراته الكثيرة ، وسوف أكتفي في كتابي برسم صورتين ، احدهما لهارولد ماكميلان الشاب المحافظ ، الثائر على حزبه ، الذي يحاول أن يضع لهذا الحزب برنامجا جديدا وسياسة جديدة ، ولكنه لا ينجح في محاولته . أما الصورة الأخرى فهي لماكميلان السياسي الناضج ، في فترة ما بعد الحرب ، الذي استطاع أن يصبح زعيما للمحافظين ، ورئيسا للوزراء .

ويبدى المؤلف رأيه في هاتين الصورتين ، فيقول ان الصورة الأولى ، أي صورة ماكميلان الشاب التقدمي الثائر ، تبعت في نفسه التقدير والاعجاب ، أما الصورة الأخرى ، أي صورة ماكميلان السياسي الناضج ، فهي خليط من المحاسن والمساوى . ذلك ان ماكميلان ، بعد أن أصبح رئيسا للوزراء ، تنكر للمبادئ والمثل العليا ، التي طالما دعا إليها وتغنى بها .

ويوجه المؤلف نقدا لاذعا لماكميلان ، الذي اندفع يوما ما في آرائه التقدمية ، حتى قيل انه يساري ، ثم لما أصبح رئيسا للوزراء ، قالت جريدة التايمز ، انه يمثل الجناح اليميني من المحافظين ، ويريح حديثا جرى بينه وبين عضو قديم ، في حزب العمال ، عن السبب في تحول ماكميلان من اليسارية التقدمية ، الى اليمينية المحافظة ، وقد رد عليه العضو العمالي

قائلًا : ان المسألة لم تكن في نظر ماكميلان مسألة مبدأ . ولكنها مسألة طبقة . أما وقد ارتقى الى صفوف الطبقة الأرستقراطية ، فقد نسى ماضيه .

وذكر المؤلف ان ماكميلان ، حينما أصبح رئيسا للوزراء ، لم يعد بعد زعيما حقيقيا للمحافظين ، بل سجيناً في أيديهم ، ورأساً سياسياً أجوف ، بل ان مهمته بعد ان كانت توجيه المحافظين ، أصبحت مقتضرة على تهدئة روع الثائرين منهم ، والتوفيق بين مصالحهم المتضاربة . وصارت خطبه مجرد ترثرة لسياسي . يتحدث وهو يتطلع من بعيد الى الانتخابات القادمة ، بدلا من أن تكون برنامج مصلح ، يفكر في الأجيال القادمة .

ويقول المؤلف ان العالم لم ينظر الى ماكميلان ، نظرة ملؤها التقدير والأكبار ، الا يوم ذهب الى الاتحاد السوفيتي ، في محاولة لوضع حد للحرب الباردة ولسباق التسلح ، ولكنه عندما ذهب الى هناك ، خيب الآمال المقودة عليه ، بافتقاره الى الجرأة التي يتطلبها الموقف ، وعجزه عن ابتكار سياسة دولية جديدة ، تحقق السلام ، والتمسك بها كأنها مبدأ وعقيدة .

ويؤازر الكاتب بين موقفين لماكميلان ، أحدهما قبل ان يصبح رئيسا للوزراء ، اذ كان دائما يرفض سياسة المهادنة رفضا قاطعا ، وثانيهما بعد أن تولى الرئاسة ، حيث أخذ يهادن العدو الحقيقي للشعب البريطاني ، ممثلا في تلك الرأسمالية الطاغية ، ومن يسير في ركابها من رجال المال وكبار الملاك ، من أصحاب المزارع والمصانع . وهنا يذكر قانون الاجازات الجديد ، فيقول انه جعل بريطانيا نعيما للملاك ، ونجينا للعمال من الكادحين .

وعيب المؤلف على ماكميلان ، استسلامه لأصحاب المشروع الفردي ، الذين يكسبون الثروات على حساب الشعب ، وعجزه عن إعادة تنظيم الصناعة البريطانية ، بحيث تستطيع مواجهة ظروف العالم الاقتصادية السريعة التغير ونتيجة لذلك فقد عجزت هذه الصناعة ، عن بناء اقتصاد بريطاني سليم ، يضمن للشعب البريطاني اطراد ارتفاع مستوى معيشته .

ويبدى المؤلف دهشته متسائلا : كيف يتمسك ماكميلان بالمشروع الفردي ، في وقت يتجه فيه العالم الى التكتلات الاقتصادية ، لا في داخل البلد الواحد ، بل بين المجموعات الدولية أيضا . وكيف يترك ملوك المال من غير رقابة حقيقية من الدولة في عصر ثبتت فيه جذور الاشتراكية ، وأصبحت للعالم ديننا وعقيدته .

ويعرض المؤلف للحديث ، عن علاقة ماكميلان بالسوق الأوروبية المشتركة ، فيقول ان رئيس وزراء بريطانيا ، حينما عجز عن مواجهة الإصلاحات الحقيقية في بلاده ، بمواجهة المسيطرين على الاستثمارات ، في صراحة وشجاعة ، لجأ الى السوق المشتركة ، على إيجاد فيها ملاذا ، يستطيع تحت لوائه أن يبني مشروعا طويلا الأجل ، لضمان مستقبل بريطانيا .

ويتحدث عن سباق التسلح ، فيقول انه على الرغم من ان ماكميلان ،

يدرك أن ميزانية التسليح تهدم اقتصاد بريطانيا ، فقد أخذ بيدد الاموال على اسلحة عتيقة ، ويقامر على اسلحة جديدة ، نصيبها الفشل، مثل « السهم الأزرق » ويضيع جهود العلماء والفنيين والعمال البريطانيين، لتحقيق حلم خيالي لا يعيش الا في راسه ، وهو أن تصبح بريطانيا قوة ذرية مستقلة ، تستطيع الوقوف وحدها في وجه الاتحاد السوفييتي .

ويوازن بين موقف كيندي من حماية الشعب الامريكى وموقف ماكميلان من المعجز عن حماية الشعب البريطانى ، فيقول ان كيندى صرح بأنه لا بد من بناء مخابىء ، تحمى الامريكيين من الفارات الذرية، فى حين ان ماكميلان ، اعترف بأنه ليس هناك ملجأ للبريطانيين من الاشعاع الذرى ، الذى تخلفه الفارات ، لأن بريطانيا ليس لديها المال اللازم لذلك .

ويغرد فصلا خاصا للعدوان البريطانى على مصر عام ١٩٥٦ ويسميه حيناً « مغامرة السويس » وأحيانا « كارثة السويس » . فيؤكد أن ماكميلان كان بين مجموعة الوزراء البريطانيين الذين كون منهم ابدن « الحلقة الداخلية » فكانوا يعقدون اجتماعاتهم الخاصة لتدبير حلة السويس من غير اشرالك بقية الوزراء فى هذه الاجتماعات . وعلى الرغم من أن ماكميلان كان فى ذلك الوقت وزيرا للمالية ويدرك ادراكا تاما متاعب بريطانيا الاقتصادية وما تواجهه الخزنة العامة من اعباء ثقيلة، وعلى الرغم من ادراكه التام لما تتطلبه مغامرة السويس من نفقات باهظة تنوء بحملها ميزانية الدولة ، لم يبدأ أى اعتراض على اجراءات انطونى ابدن ، بل كان يؤيدها كل التأييد .

ويقول ايمرى هيوز : ان جون ستراتشى ، فى اثناء مناقشة ازمة السويس فى مجلس العموم ، طلب الى ماكميلان الاعتراف بأن حملة السويس كانت سياسة خاطئة . . . ترتبت عليها حملة عسكرية خاطئة . . . موجهة الى اهداف خاطئة .

وقرر أنيورين بيفان أن اليريجادير « هيد » وزير الحرب السابق، انهم زملاءه الوزراء بأنهم وضعوا خطة حملة السويس وهم يعلمون أنها عملية انتحارية ، ثم فروا من الميدان قبل تنفيذها .

ويستخلص ايمرى هيوز من ذلك كله ان ماكميلان يتحمل نصيبه الكامل فى حملة السويس المشؤمة . .

ويختتم المؤلف كتابه قائلا ، ان ما ذكره ليس كل شيء فى حياة ماكميلان ، فهو لا يزال رئيسا للوزراء ، واذن فهو لا يزال الممثل الاول ، على المسرح السياسى فى بريطانيا . ولكن ماكميلان حتى اليوم ، قد فشل فى تحقيق هدفين حيويين ، لضمان مستقبل بريطانيا ، أولهما إعادة تنظيم اقتصادها لمواجهة الاخطار المقبلة ، وثانيهما تمكينها من دخول مشرف فى النادى الذرى .

مقدمة المؤلف

حينما سئل برنارد : ما الذى حدا بك الى تأليف مسرحية عن جان دارك ؟ رد قائلا : لكى انقذها من قلم جون درنكووتر .

وانا لا ادعى اننى اخرجت هذا الكتاب عن هارولد ماكميلان لانقذه من راندولف تشرشل . والواقع ان راندولف سهل الاثارة لى وقد تغيريه قصتي هذه فيكتب ترجمة لحياة ماكميلان ، تلقى لنا ضوا جديدا على مأساة السويس ، بل قد تفشى لنا كثيرا من الاسرار السياسية الهامة التى تنطوى عليها اصابير حزب المحافظين . ومن رأى ان راندولف تشرشل قد ادى خدمة عامة بكتابة ترجمة لانطونى ايدن ، واذا كان المحافظون فى مجلس العموم وفى الزيف الانجليزى قد تصدوا للرد على راندولف تشرشل حينما كتب ترجمة انطونى ايدن ، فلا اظن انهم سوف يبدون كثيرا من التحمس اذا ما علموا ان راندولف سوف يكتب ترجمة لحياة هارولد ماكميلان . وعلى اية حال فسواء كتب راندولف او غيره من المحافظين ، عن حياة ماكميلان ، فقد مهدت لهم الطريق وبذلك أصبحت مهمتهم سهلة ، ذلك لاننى جمعت المعلومات والمستندات التى تتطلبها الكتابة عن هذا الموضوع فى مجلد واحد هو ذلك الذى اضعه بين ايدي القراء .

ان كل رئيس وزراء فى بريطانيا يستحق أن تكتب عنه ترجمة وان لم يكن على شيء من الأهمية ، فهذه الترجمة تعتبر مرجعا للباحثين .

والواقع ان شخصية ماكميلان اكثر تعقيدا ، امام كاتب التراجيح ، من انطونى ايدن ، فهو رجل ذو شخصية متعددة الجوانب ، ولقد سألت مرة أحد الدبلوماسيين الاجانب : ما رأيك فى ماكميلان ؟ فاجاب : اى ماكميلان تقصد ؟ ذلك ان ماكميلان يتغير بتغير المواقف والظروف ، فيبدو لك فى شخصية لا عهد لك بها من قبل .

ومهما يكن من أمر فقد اقتصررت فى كتابي هذا على دراسة ماكميلان فى صورتين : الاولى صورة ماكميلان الشاب المحافظ الثائر على حربه فى فترة ما قبل الحرب ، بما فيها من خروج على التقاليد الحزبية ، وما تتضمنه من محاولته وضع برنامج جديد لحزب المحافظين واقامته على اسس سياسية جديدة وتغيير نظراته العامة وهو فى هذا لم يوفق كثيرا . اما الصورة الأخرى فهى لماكميلان ، السياسى الناضج فى فترة ما بعد الحرب ، وقد أصبح زعيما ورئيسا للوزراء .

اما الصورة الاولى فهى تحظى بعطفى وتقديرى ، واما الصورة الاخرى فهى مزيج من المحاسن والمساوىء ، وقد يعثرها البعض سوء

تقدير سياسي ، وعلى أية حال فسوف يكتشفها القارئ الناقد في أثناء تصفحه الكتاب .

وقد يصعب على محافظ ، سليم المبدأ ، أن يحاول كتابة ترجمة لهارولد ماكميلان ، فهو لا يكاد يقرأ بعض خطب ماكميلان أو كتاباته السابقة حتى يشك في أنه من المحافظين .

والحقيقة التي تثير الدهشة هي : كيف انتهى الحال بـماكميلان إلى أن يصبح بين الجناح الأيمن من المحافظين ، على حد قول جريدة «التايمز» حينما تولى رئاسة الوزارة . ولكن ماذا حدث ؟ ولماذا تنكر ماكميلان لمبادئه القديمة ؟ ولماذا اتجه اتجاهها يمينيا وأصبح من المحافظين ، ولم يتجه إلى اليسار ويصبح من العمال ؟

لو أن ماكميلان انضم إلى العمال منذ شبابه فلا شك في أنه كان في استطاعته أن يتولى زعامة حزب العمال . ولقد مرت به فترة أبدى فيها اهتماما جديا بهذا الحزب ، حتى لقد ظن الجناح اليسارى من العمال أنه سوف ينضم إليهم انضماما عاجلا .

حينما وجه ماكميلان خطابا إلى شباب المحافظين أبدى أنه فرح خوفا من وجه كارل ماركس ، ولكن ماركس لم يكن في ذلك الوقت غولا مفزعا ، كما لم يكن في طريقه لزعامة العمال !

لقد وجهت إلى عضو قديم من العمال في مجلس العموم البريطاني سؤالا عن السبب في أن ماكميلان - وقد وجد من المستحيل عليه أن يتخذ طريقا وسطا بين اليمين واليسار - فضل اليمين على اليسار ، ورد على النائب العمالي قائلا : أن المسألة في نظر ماكميلان لم تكن مسألة مبادئ ، بل مسألة طبقة ، وقد انحاز خطأ إلى جانب المحافظين ولم يستطع التخلص منهم .

وهذا صحيح لأن ماكميلان حينما أصبح رئيسا للوزراء ، لم يعد زعيما حقيقيا لحزب المحافظين ، بل أسيرا لديه ، ورأسا سياسيا فارغا يتحدث باسم الحزب ومدافعا عن أصحاب الامتيازات الخاصة الذين كثيرا ما تهداهم ، وأصبحت خطباته لثروة السياسى الذى يرمى بصره إلى الانتخابات القادمة ، بدلا من أن تكون برنامجا لرجل الإصلاح الذى يعمل لخدمة الأجيال القادمة .

والعمل الوحيد في حياته ، كرئيس للوزراء ، أعنى العمل الذى يتسم بالشجاعة والاقدام هو رحلته إلى الاتحاد السوفيتى للعمل على تخفيف حدة التوتر بين الشرق والغرب . لقد تجددت الآمال في أوروبا الغربية برحلته ، وحمدت الشعوب الغربية طالعها الموفق أن ظهر من بينها رجل يعمل حقا من أجل السلام ، ويضع حدا لسباق التسلح ويضع أسس اتفاقية مع الاتحاد السوفيتى تؤدي إلى انتهاء النزاع . ولكن هذه الآمال تبخرت ، إذ أن ماكميلان لم يجد لديه الشجاعة الكافية ولا القدرة على ابتكار سياسة دولية جديدة والعمل على تنفيذها في عزم وتصميم . وإلى ماكميلان نفسه أسيرا للسياسة الخارجية كما كان أسيرا للسياسة الداخلية .

كان ماكميلان قبل الحرب من أشد المعارضين لسياسة التهذبة ، ولكن لما أصبح رئيسا للوزراء لم يتردد في اتباع سياسة التهذبة وتطبيقها في معاملاته مع اعداء الشعب البريطاني الحقيقيين في الجهة الداخلية ، وهم كبار الرأسماليين وأصحاب الضياع الواسعة والشركات الكبرى . والمضاربون في بورصة الأوراق المالية ، وقانصو المكاتب الصغيرة من اصحابها ، والفائزون بالمعاهدات الكبرى .

ان حكومة المحافظين ، باصدارها قانون الاجارات الذي رفع القيمة الاجارية على الطبقة العاملة ، جعل بريطانيا نعيما للملاك وجحيما للابوين الكادحين من ابناء الشعب البريطاني .

ان ماكميلان قد رفع الاجارات ، ولفى المعونة المالية للحاصلات الزراعية ، وزاد الرسوم الصحية ، وبذلك اضطر العمال الى المطالبة بزيادة الاجور ، مما أدى الى التضخم النقدي وما يتبعه حتما من ازمت مالية واقتصادية .

كذلك فان استسلام ماكميلان للمضاربين على المشروعات الفردية والهابرين من دفع الضرائب ، وفشله في اعداد تخطيط للصناعة البريطانية وامادة تنظيمها لمواجهة الموقف الاقتصادي السريع التغير في عالمنا الحديث ، جعل من الحال بناء هيكل اقتصادي سليم في بريطانيا يضمن للشعب اطراف رفح مستوى المعيشة والرخاء الحقيقي في المستقبل .

وفي حين ان العالم يتجه الآن اتجاهها عاجلا نحو التكتل والاحتكارات الكبرى ، فان ماكميلان لا يزال يتحدث في عبارات جوفاء عن المشروع الفردي ، ويرفض أن تفرض الدولة اشرافها على اصحاب المشروعات الكبرى لتضمن حقوق الشعب ضد هؤلاء الانتهازيين والاستغلاليين .

ولا يتسع المقام في هذا الكتاب لشن حملة كاملة ضد ماكميلان وسجله الحافل بالتخاذل امام ساداته الرأسماليين .

ولما فشل أخيرا راح يبحث عن ملجأ في ظل السوق الأوربية المشتركة بعد أن عجز في وضع خطة طويلة الأجل لمستقبل بريطانيا .

وعلى الرغم من ادراكه ان سباق التسلح يكلف بريطانيا ثمنا باهظا فقد أخذ يواصل التسلح ، ويبدد الأموال بمنة وبسرة على أسلحة أصبحت ، مع التطور ، عتيقة ، ويقامر على أسلحة جديدة عظيمة التكاليف مثل « صاروخ السهم الأزرق » ويبدد جهود العمال والفنيين والعلماء البريطانيين سعيًا وراء انتاج رادع نووي بريطاني مستقل عن الأسلحة النووية الأمريكية ، مفترضًا أنه يجب على بريطانيا ، في العصر الذري ، ان تعتمد على نفسها اذا ما خاضت غمار حرب ضد الاتحاد السوفييتي . وعلى الرغم من كل ذلك فبعد انتهاء خمس سنوات على توليه رئاسة الوزارة البريطانية كان العسكريون أول من وجه النقد المزل الى سياسته الدفاعية ، وطالبوه بادخال نظام التجنيد الاجباري لتقوية القوات المسلحة البريطانية التي تصورها الأسلحة الحديثة . وبخضوعه لأمريكا جعل بريطانيا تقف في الصفوف الأولى اذا ما نشبت

حرب نووية ، ويقولون ان تكون بريطانيا قاعدة امريكية ، عرض
البريطانيين الى اشد الاخطار مع اصفر قدر من الوقاية .

وفي حين كان كنيدي يطمئن الشعب الامريكي على انه لا بد من
اعداد ما يكفي من المخابىء ضد الغارات النووية، نجد ماكملان يعترف
امام الشعب البريطاني بأنه لن يستطيع ان يوفر له المخابىء التي تقيه
الاشعاع الذري لأنه ليس لديه المال اللازم لذلك .

وانك لتقرأ تذييلا للكتاب الابيض الصادر عام ١٩٦٢ خاصا بشئون
الدفاع البريطاني . وقد ورد في هذا التذييل ان الحكومة البريطانية تفكر
في وضع برنامج لنقل الامهات والأطفال وغيرهم ممن يستحقون قسما
اكبر من الرعاية ، من المراكز الكبرى المزدحمة بالسكان . أما اين يتم
توزيع هؤلاء فهو ما لا يدريه احد !

لقد بلغنا المرحلة التي نبشئ فيها السير روبرت واطسون وات
مخترع الرادار ، ان قصة ذلك الرادع النووي الكبير تهدد لبئانا
ولبقاء الجنس البشري باجمعه .

وهذا الكتاب ليس نهاية القصة ، لان هارولد ماكملان لا يزال
رئيسا للوزراء ، ولا يزال الممثل الاول على المسرح السياسي البريطاني،
وان كانت الانتخابات الفرعية ، التي اجريت في مارس ١٩٦٢ ، قد
اثبتت ان المحافظين تهتز من تحتهم المقاعد ، وان السياسة البريطانية
في بوتقة الصهر ، بل ان مستقبل بريطانيا كله - وليست سياسة
بريطانيا فقط - معلق بخيط .

فقد تورطت بريطانيا فيما سماه ماكملان « سباق التسلح النووي
الرهيب » ولكن ليس هنالك من الأدلة ما يشير الى أن بريطانيا قد
حققت فوزا في هذا السباق . او انها في الطريق لتحقيقه ، وهذا كله
يجرى وسط أزمة خائفة مالية واقتصادية . ومن ناحية اخرى فنحن
نجرى مفاوضات للانضمام الى السوق الأوروبية المشتركة وهذا يعني
تطورا ثوريا في اقتصادنا وفي حياتنا القومية .

ان ما يحدث لماكملان بهما ، لانه مرتبط بمصالحنا ، والواقع
ان السياسة البريطانية أصبحت من الأهمية بدرجة لا عهد لنا بها
من قبل .

ويبدو ان الفصول الأخيرة من حياة ماكملان السياسية قد
تؤدي بالشعب البريطاني الى خطر داهم ، واذا كان شباب المحافظين
في حاجة الى كتاب عن السياسة الحديثة ، فما هو ذا كتابي بين ايديهم،
وعلهم ان يتعلموا منه اكبر قدر من رئيس وزرائهم وحياته السياسية،
وكيف وصل الى منصبه الخطير وما فعله حينما تولى هذا المنصب .

ايمرى هيوز

١٧ مارس ١٩٦٢

في الطريق إلى إنجلترا

تعرض أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني ، ذات يوم ، للحديث عن جد ماكميلان ، فوقف هارولد ماكميلان ليعلن للمجلس أن جده كان اسكتلنديا فقيرا ، وأنه نزح من مسقط رأسه في اسكتلندة الى إنجلترا سعيًا وراء الرزق ، وقد كان من حقه أن يفعل ذلك . ولو أن الحكومة الانجليزية في عصر الدكتور جونسون ، كانت قد اصدرت تشريعا يحرم على الاسكتلنديين الإقامة في إنجلترا ، كما فعلت حكومة ماكميلان ضد الإيرلنديين وضد سكان جزر الهند الغربية وضد بقية أبناء الكومنولث ، لو كان ذلك قد تم لما استطاعت أسرة ماكميلان الإقامة في لندن ، ولاندرى إكان ذلك لخير إنجلترا أم لشرها .

لقد كتب برنارد شو ، في رسالة وجهها الى عام ١٩٤٦ يقول : نحن في حاجة الى الاسكتلنديين ، لانهم يفهمون الأمور السياسية فهما جيدا أما الإنجليز فلم يكتمل نضجهم السياسي بعد . ولما كان شو إيرلنديا فهو رجل موضوعي ، والواقع أنه منذ بداية القرن العشرين حتى وقتنا الحاضر ، تولى رئاسة الوزارة البريطانية رجال من أصل اسكتلندي ، وهؤلاء هم : بلفور ، وكامبل بانرمان ، وبونار لو ، ورامزي مكدونالد ، وآخرها ماكميلان .

ولا ننسى في هذا المقام الاعتراف بالفضل لبنت ماكميلان في تثقيف الشعوب التي تتكلم الانجليزية ، فدار ماكميلان للنشر لم تقصر نشاطها على نشر أحسن المؤلفات الانجليزية ، بل أنها زودت بقية العالم بكثير من المؤلفات الانجليزية ، وبذلك ساهمت مساهمة قوية في نشر الأدب والثقافة والحضارة في جميع أنحاء الأرض . وقل أن تجد مكتبة انجليزية خاصة أو عامة ، ألا وقد ساهمت دار ماكميلان في تزويدها بعدد كبير من الكتب . وإلى هذه الدار يرجع جانب كبير من الفضل في نشر طبعات رخيصة لمؤلفات شكسبير ، وميلتون ، وتينسون ، وشارلس كنجزلي ، ولويس كارول ، وتوماس هاردي ، ورديارد كبلنج ، وغيرهم مما تجده مسجلا في قوائم ماكميلان .

ويقول هارولد ماكميلان : انني وشقيقي نعتمد الى حد كبير على ماخلفه لنا جدنا ، وأرجو أن يسعد ابننا بما خلفناه لهم .

ولندكر نبذة عن تاريخ أسرة ماكميلان ، فنقول ان دانييل ماكميلان مؤسس دار ماكميلان للنشر ولد عام ١٨١٣ ، في جزيرة أرنان عند مصب نهر الكلايد . وكان جد دانييل مزارعا صغيرا يجمع الإيجار من بقية الفلاحين ويقدمه الى صاحب الأرض ، كما كان يزود هؤلاء الفلاحين بما يلزمهم من الحبوب . وكان هذا الرجل كثير العيال ، ولكن حدث وباء في

استكلندة فمات بسببه كثير من ابنائه ، وهذا ماكان يصيب الفقراء كلما اجتاحت البلاد وباء . ومن رسائل دانييل يتبين لنا أن الاسرة كانت تعاني أشد حالات الاملاق ، حتى لقد كانت أحيانا توشك أن تموت جوعا .

وهناك فيما خلفه لنا الشاعر الاسكتلندي ، روبرت بيرنز ، قصيدة تصور ماكان عليه الفلاحون في هذه البلاد من تعاسة وؤس ، حتى أن أحدهم يبدو لك وكأنه يجمع بين زهد النساك وشقاء الرقيق .

ولما كان وتكان ماكميلان كثير العيال فقد كانت مصيبتة أشد ، وأصبح مجرد البقاء في هذه الدنيا بالنسبة له سلسلة لانهاية لها من الكفاح المضنى وخاصة أن المالك لم يكن يرخم فلاحيه وأجرأه .

وقد كان فلاحو « اران » وهى مسقط رأس اسرة ماكميلان ، يفلحون أرضهم طبقا لعقود طويلة الاجل مع المالك ، ولكن حدث عام ١٨١٥ أن انتهت عقود الاجار القديمة ، فارتفعت الاجارات الجديدة وأصبح من المحال على كثير من العائلات مواصلة الإقامة ، فلم يكن يوسعهم الا الهجرة الى الولايات المتحدة وكندا والبلاد الاخرى فيما وراء البحار . وكان من بين من هجروا مسقط رأسهم ، والد دانييل ماكميلان ، فقد نزح الى مدينة ايرفين ليرعى أبقاره القليلة ويزرع قطعة صغيرة من الارض ويعمل في نقل الفحم من المنجم الى المدينة .

وأخيرا مات الرجل من شدة الاعياء وسوء الغذاء والمرض ، ومن هنا أرسلت العائلة دانييل ماكميلان ليعمل في دار صغيرة لتغليف الكتب وبيعها ، وظل يعمل في الدار سبع سنين بأجر قدره شلن ونصف شلن في الاسبوع .

وبعد أن تعلم دانييل فنه الجديد رحل الى جلاسجو ليعمل في أحد محال بيع الكتب . ويصف دانييل هذه الفترة من حياته قائلا : كنت أوصل العمل من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل . كنت أبداً عملي في منتصف الساعة صباحا ولا أعود الى أهلى الا بعد العاشرة أو الحادية عشرة مساء ! حتى لقد هد الاجهاد قواى واعتلت صحتى .

وكان له صديق يدعى جيمس ماكليوز يشتغل في لندن ، فدعا اليها كي يبحث عن عمل في هذا البلد الكبير . وهكذا ولى دانييل ماكميلان وجهه شطر لندن ، وهناك أخذ يتردد على محال بيع الكتب باحثا عن عمل . وكثيرا ماكان دانييل ماكميلان يرتد خائبا فيجلس فوق رصيف الشارع باكية بكاء حارا ويبتهل الى الله أن يفرج كرتبه . وأخيرا عمل في مكتبة سيلى ، في فليت ستريت ، بمرتب سنوى قدره ستون جنيها .

وفي لندن حضر اليه شقيقه واستطاعا ، ببعض مالديهما من المال وبمبلغ آخر اقتراضاه ، أن ينشئا محلا لبيع الكتب في كمبردج ، وقد تحول عليهما من بيع الكتب الى دار للنشر ، وما ان نمت الدار . وازدهرت وبدأ دانييل يحنى ثمار كده وصراعه ضد الفقر والمرض ، حتى عاجلته منيته وهو في سن الخامسة والاربعين . هذا وقد نشر توماس هيوز رسائل دانييل ماكميلان ، ومنها يتبين لنا أن هذا الرجل كان شجاعا قديرا قوى العزيمة الى حد كبير ، ولم يحظ الرجل بتعليم أكاديمي ،

ولكنه تعلم كثيرا في مدرسة الحياة حتى لقد كان موضع تقدير رجاء
الادب المتنازين الذين كانوا يعرفون له مواهبه وخلقه القوى .

وكان من بين أصدقائه القس فردريك دينسون ، وهو من زعماء
الاشتراكية المسيحية ، كما كان الشاعر تشارلس كنجزلى من أصدقائه
الحميمين .

وقد اكتشف آل ماكميلان أن كراهية الانجليز للاسكتلنديين لم تنته
عند عصر الدكتور جونسون ، ولذلك كان من أول مطبوعاتهم رسالة
فلسفية عنوانها : الاسئلة الثلاثة الكبرى : من أنا ؟ ومن أين جئت ؟ وإلى
أين أذهب ؟ وحينما ذاعت الرسالة أنبرى لونغمان ، وهو ناشر منافس
لآل ماكميلان ، للرد عليها فقال : أما الجواب عن السؤال الاول فهو :
انت اسكتلندى ، وأما عن السؤال الثانى فالجواب : انك قادم من بلاد
أكلة الكعك ، وأما الرد على السؤال الثالث فهو : فلتذهب الى الشيطان !

نتقل من دانييل ماكميلان ، جد صاحبنا رئيس الوزراء ، الى والده
موريس كروفورد ماكميلان ، وإلى هذا الرجل يرجع الفضل في انشاء
فروع لدار ماكميلان فيما وراء البحار وبخاصة في الهند .

ويحدثنا تشارلس مورجان في كتابه « دار ماكميلان » وهو خير من
كتب عن هذه الاسرة ونشاطها ، فيقول : ان دار ماكميلان استطاعت نشر
كل ما يلزم البلاد الواقعة فيما وراء البحار ، فنشرت كتبا مدرسية لابناء
البوير في جنوب افريقيا ، وباللغة السواحلية لابناء شرقى افريقيا ،
وباللغة العربية للمصريين ، كما نشرت كتبا لابناء الصين واستراليا .

وقد تزوج موريس ماكميلان من هيلين بيلز ، وهى ابنة طبيب
امريكى من ولاية انديانا ، وأنجب الزوجان هارولد ماكميلان ، رئيس
الوزراء الحالى ، الذى ولد في لندن يوم ١٠ فبراير عام ١٨٩٤ .

ايتون - أكسفورد - عمل فى البحر الملكى

الاشتغال بالسياسة

نشأ هارولد في بيئة تختلف تمام الاختلاف عن بيئة جده ، فقد
كان أبواه على درجة كبيرة من الثراء بحيث استطاعا أن يعيما له تعليمًا
راقيا كما هيئا له الفرصة التى تتاح لابناء الطبقة الارستوقراطية وابناء
الانرياء من الطبقة الوسطى .

وقد ظل هارولد خمس سنوات في كلية ايتون بين ابناء الاسماء
والهواتف واللوردات وغيرهم من ابناء العائلات الكريمة وذوى الثراء .

وفي هذه الكلية يتلقى الطلاب العلوم التى تؤهلهم للمناصب القيادية
ولأن يكونوا في المستقبل حكاما في بلادهم وفي بلاد الامبراطورية الواسعة

وكانت والدة هارولد تتحدث الفرنسية ولذلك استطاع عن طريقها ، أن يتعلم الفرنسية وأن يتحدثها بطلاقة .

وقد انتقل هارولد من إيتون إلى كلية باليول في أكسفورد ، وهناك استطاع بذلك وكفايته أن يمتاز بين أقرانه . وفي أثناء الحرب العالمية الأولى التحق بفرقة الحرس ، ورفق إلى رتبة « كابتن » وقد أصيب ثلاث مرات ومنح وسام الصليب العسكري تقديرا لشجاعته . وبعد الحرب أصبح ياورا لدوق ديفونشير ، الحاكم العام في كندا .

وكانت هذه المناصب الرفيعة في تلك الأيام وقفا على كبار النبلاء ، وإذا كان هارولد ياورا لدوق ديفونشير فقد أخذ يظهر بمظاهر النبيل والسمو والشرف ، وهو وإن لم ينحدر من أسرة نبيلة ، وعلى الرغم من أن الدم الأزرق لايجرى في عروقه ، فقد كان لطلعته الجميلة وطوله الفارع وما يحيط به من عظمة وبهاء ، أثر كبير في تكوين شخصيته الأرستوقراطية .

وأخيرا تزوج هارولد إحدى بنات الدوق ، وكان زفافه إليها فرح الموسم في لندن خصوصا وقد شرفت بحضورها الملكة ألكسندرا والإميرة لويز ، كما حضره الكاتب العالمي توماس هاردى .

ولم يرق لهارولد أن يعود إلى عمله في الطباعة والنشر بعد أن ارتقى إلى مصاف الطبقة الأرستوقراطية ، وهنا بدأ يفكر في الاشتغال بالسياسة ولكن إلى أين يتجه ؟ لقد كانت لديه جميع المؤهلات اللازمة لعضو محافظ في مجلس العموم البريطاني ، فلديه الثراء ولديه الروابط بالأسر الأرستوقراطية .. الخ .

ولا ضير في أن يصبح ابن ناشر كتب نائبا محافظا ، فقد كان مجلس العموم حينذاك مليئا بأبناء الطبقة المتوسطة الغنية من أصحاب المناجم والمصانع وأحواض بناء السفن ، وبأبناء أولئك الذين جمعوا ثرواتهم من المضاربة في البورصة .

وفي الانتخابات العامة في ديسمبر ١٩٢٣ رشح حزب المحافظين هارولد لعضوية مجلس العموم عن دائرة ستوكتون . وفي هذه الدائرة بدأ صراع انتخابي عنيف بين هارولد ماكميلان ، عن المحافظين ، والمajor ستيوارت ، عن الأحرار ، ومرشح ثالث للعمال . وقد فاز مرشح الأحرار على ماكميلان بأغلبية ٧٣ صوتا فقط .

وفي عام ١٩٢٤ أعيدت الانتخابات العامة ، وبعد سقوط وزارة العمال الأولى ، وفي هذه المرة فاز هارولد ماكميلان بعضوية مجلس العموم عن حزب المحافظين في دائرة ستوكتون . وهكذا أصبح عضو برلمان في سن الثلاثين وهنا بدأ حياته السياسية .

محافظ من الجمل اليساري

لا يتصور أحد أن هارولد ماكميلان خاض غمار السياسة بسهولة التي تنزلق بها صفار البط إلى الماء ، فقد مضت خمسة أشهر على افتتاح الدورة البرلمانية قبل أن يلقي خطابه البرلماني الأول . وقد كان ذلك حين نظر البرزانية يوم ٣٠ من إبريل ١٩٦٥ ، وكان وزير المالية حينذاك هو ونستون تشرشل الذي انتقل حديثا من صفوف الأحرار إلى صفوف المحافظين . ولما عرض تشرشل مشروع الميزانية واجه تقدا شديدا من فيليب سنورن وزير المالية في وزارة العمال المستقلة . وباستثناء بند خاص بمعاشات الأامل ، كانت ميزانية تشرشل خالية من أي اتجاه نحو مساعدة المحتاجين ، بل انها كانت في الواقع ميزانية « أثرياء المحافظين » .

ولما وقف هارولد ماكميلان لالقاء خطابه البرلماني الأول ، وقد الكثيرون على مجلس العموم لسماع هذا الخطاب . وكانت بداية الخطاب عادية ، ككل خطاب برلماني أول ، ولكن بعد قليل اندفع هارولد ، ليرد ردودا عنيفة على سنورن ويفند حججه تفنيدا منطقيا ، ثم أشار في خطابه إلى مشروع المعاهدة الروسية التي كانت من بين أسباب سقوط وزارة العمال . وأشار إلى نداء ، كان رامزي ماكدونالد قد وجهه إلى شباب المحافظين لينضموا تحت لوائه ، قائلا أن ماكدونالد لا يفهم عقلية شباب المحافظين حتى لقد خيل إليه أنهم قليلو الخبرة ومن السهل اغراؤهم . وتحدث عن اشتراكية رامزي ماكدونالد ، فقال انها خليط عجيب من الماركسية ومن اشتراكية كويدين وغيرها . وأخيرا طالب بتأييد مشروع الميزانية الذي قدمه تشرشل .

والمفهوم من خطاب هارولد ماكميلان أنه لم يكن من المحافظين الرجعيين ، ولكنه تقدمي في آرائه واتجاهه العام . ولقد أخذ هذا الشاب المحافظ التقدمي يتساءل : لم لا يكون للمحافظين سياسة خاصة بالبطالة؟ ولماذا يظل حزب المحافظين حزب الراسماليين الذين ينتزعون القوت من أفواه العمال الكادحين ؟

وقد شارك ماكميلان في هذا الاتجاه عدد من شباب المحافظين ، فكونوا فريقا خاصا بهم وأخذوا يدرسون المشاكل الخاصة بالعمال وخصوصا مشكلة البطالة .

وفي عام ١٩٦٧ نشرت هذه الجماعة أول كتاب لها تحت اسم « الصناعة والدولة » وقد تضمن هذا الكتاب دعوة موجهة إلى حزب المحافظين ، كي يتخذ له سياسة صناعية واضحة . وكانت تغلب على الكتاب ، في بعض الأحيان ، اتجاهات الجمعية الغابية ، وكذلك اتجاهات الاتحاد المعارض للاشتراكية . ويستخلص من حياة هارولد ماكميلان البرلمانية بوجه عام ، في الفترة من ١٩٢٤ إلى ١٩٢٩ ، أنه كان محافظا يساريا ، ولكن كان من الصعب حينذاك وضع تعريف دقيق واضح للمحافظ اليساري . وفي عام ١٩٢٩ سقط في الانتخابات العامة ، ثم

اعيد انتخابه عام ١٩٣١ وظل نائبا عن ستوكتون حتى عام ١٩٤٥ .
وفي هذه الفترة قام جيمس جونستون ، المندوب البرلماني لصحيفة
« يوركشير بوست » بوضع كتاب حلل فيه شخصية ماكميلان كعضو في
البرلمان . ولتنقل للقارئ بعض ماكتبه جونستون :

ان الشباب المتحمس في حزب المحافظين ، ذلك الشباب الذي
يسمى الى الاصلاح الاجتماعى ، يطلق على جماعته من باب الفكاهة اسم
« جمعية الشباب المسيحية » . ومن أبرز شخصيات هذه الجماعة
الكابتن هارولد ماكميلان ، اذ انه في الحقيقة اكفأ المتحدثين باسم الجماعة
وهو يمتاز بالاستقامة والاعتدال والاخلاص ، وهو في موقفه البرلماني
يذكرنا بالمستر بونارلو .

والكابتن ماكميلان لديه قائمة طويلة من الاصلاحات الاجتماعية
وهو يرى ان اعادة بناء المجتمع خير من « ترقيمه » . والمسائل التي
تجذبده أكثر من غيرها هي المسائل الخاصة بالبطالة ، والتنظيم الصناعى
وأعداد فئات الاجور بحيث تتناسب مع الاوضاع الاجتماعية والصناعية .

هكذا يبدو لنا ماكميلان في اول حياته البرلمانية سياسيا طاهر
الدليل نقى السريرة يسمى باخلاص لخدمة الجماهير ولم تفسده الخيانة
البرلمانية بعد .

وفي عام ١٩٣٣ نشر ماكميلان كتابا جديدا تحت عنوان « اعادة
التنظيم - الدعوة الى سياسة قومية » . وهو يطالب في كتابه هذا بوضع
اسس جديدة للتنظيم الاقتصادى والاجتماعى بحيث تتلاءم مع الظروف
المتغيرة في عالم اليوم .

الاتجاه الى التخطيط

هناك فصل عنوانه « الاتجاه نحو التخطيط » يقول ان فكر
التخطيط اصبحته هي السيطرة على الحكومات فيما يتعلق بالحياة
التجارية والصناعية . ولم تجد هذه الفكرة رواجاً بين العلماء واصحاب
النظريات فقط ، ولكن أخذ بها ارباب الصناعة أيضا ووجدوا فيها ضرورة
لا بد منها لاداء أعمالهم اليومية .

ويقول ماكميلان ، ردا على اولئك الذين يطمون بالعودة الى الماضي
ويثورون ضد أى اقتراح جديد بالتنظيم ، ان العالم قد تغير ، وان العودة
الى القديم أصبحت مستحيلة من النواحي الفنية والسياسية
والاقتصادية . ولم يكن التخطيط الجديد الذى يدعو اليه ماكميلان
تخطيطا اشتراكيا ، ولكنه تخطيط مركزى يتم من طريق اخضاع الانتاج
الى توجيه سلطة مركزية بحيث يمنع التكرار والازدواج بين مختلف
الصناعات ، وكذلك يمنع انتاج كميات تزيد كثيرا على حاجة الاستهلاك

وضرب مثلا لبرنامج الإصلاح : ما تم من إنشاء لجنة الكهرباء ، وقانون النقل بمدينة لندن . ولجنة التسويق فكلها هيئات يقوم عملها على التخطيط . ويتلخص برنامجه فيما يلي :

١ - الاعتراف بمبدأ التخطيط .

٢ - إنشاء هيئة مركزية للإشراف على الصناعة البريطانية ، ووضع التخطيط اللزام لتنمية هذه الصناعة .

٣ - أن تقوم الدولة بوضع الخطوط المريضة للتخطيط الصناعي في بريطانيا فتقيمه على أساسين : أحدهما يستند الى الاحتكاكات الكبرى ، والآخر يقوم على أساس المنافع العامة .

وهذا البرنامج كان يبدو شديد التطرف في تلك الأيام ، حتى لقد قال عنه أحد المحافظين من أتباع المدرسة القديمة انه من منتصف الطريق نحو الاشتراكية .

وقد حدد هارولد ماكميلان ، في كتابه ، وضع آرائه بين اليمينية واليسارية فقال : ان البرنامج الذي تضمنه كتابي هذا سوف يوصف من ناحية العناصر اليمينية بأنه « اشتراكية » ، وسوف تصفه العناصر اليسارية بأنه « فاشية » وهو في الواقع ليس اشتراكيا ولا فاشيا ، وقد يقال انه تنظيم بيروقراطي يتناول كل مشروع فردي بالتعديل والتحديد ويفرض عليه القيود اللازمة للإشراف على الاسعار والارباح والاجور والمزببات والإيجارات وكل ما تنطوي عليه عوامل التنافس السوقية . وهذا أيضا غير صحيح . والواقع ان البرنامج بعيد كل البعد عن التدخل في الحرية السياسية ، وهو ضد التفسير الثوري وجوهره التخطيط ، أي أن تسيير عوامل الانتاج وفق نظام معين لا يتعارض مع سلامة الاقتصاد القومي .

لقد وضع ماكميلان برنامجه هذا عام ١٩٣٣ وكان يريد به وضع خطة خمسية لبريطانيا ، مثل الخطة الخمسية التي يضعها الاتحاد السوفييتي ويجدها كلما انتهت مدتها ، ولو أنه لم يكن يقصد أن يسير التخطيط البريطاني وفق نظام التخطيط السوفييتي .

وعلى الرغم من انهامه بالتطرف في ذلك الوقت ، فانه حينما واجهت بريطانيا أزمة مالية واقتصادية عنيفة عام ١٩٦١ وقف سلوين لود ، وزير المالية حينذاك ، ليعلم ان بريطانيا يجب أن تسير على مبدأ التخطيط الاقتصادي ، وهنا واجهه المحافظون بالتهكم والسخرية من مبدأ التخطيط ، ولم يدروا أن زعيمهم ، هارولد ماكميلان ، كان ينادي بهذا المبدأ منذ ثلاثين عاما مضت .

ويقول توماس جونز ، وهو الذي ظل فترة طويلة سكرتيرا لمجلس الوزراء البريطاني ، في كتابه « يوميات ورسائل » انه قابل ماكميلان في فبراير ١٩٣٣ على اثر عودته من زيارة لموسكو ، وكان ماكميلان يتحدث كاستاذ في الاقتصاد ويعلن انه تأثر كثيرا بما شهده في الاتحاد السوفييتي

وفي نوفمبر ١٩٣٤ في أثناء مناقشة خطاب العرش ، القى ماكميلان خطاباً طويلاً ركز جهوده فيه على إيضاح مآلانيه سكان المناطق المنكوبة في جنوب إنجلترا من بؤس ، ووجه سؤاله الى وزير المالية - نيفيل تشمبرلين حينذاك - ليبين لمجلس العموم مافعله الحكومة لهؤلاء المنكوبين وما اتخذته من اجراءات لتخفيف حدة البطالة .

وتحدث ماكميلان عن انتقال المراكز الصناعية من شمال إنجلترا الى جنوبها ، وعزا ذلك الى أن الاجور في الجنوب أقل مما هي عليه في الشمال ، واحوال العمال أسوأ ، ودعا الى دعم الحركة النقابية في الجنوب وهي خطوة لم تكن متوقعة من نائب محافظ .

وفي أثناء الخطاب عرض ماكميلان للحديث عن موقف الرأي العام البريطاني من سياسة الدولة ، فقال ان فئة قليلة من أبناء الشعب ينتمون الى حزب المحافظين ، وفئة قليلة أخرى تنتمي الى حزب العمال ، وفئة ثالثة قليلة أيضا تنتمي الى حزب الاحرار ، ولكن جمهور الشعب محرومة من الاشتراك في الحكومة وفي توجيه سياسة الدولة .

وعلى الرغم من ان خطاب ماكميلان قوبل بالاستحسان من صفوف العمال والاحرار فقد عارضه المحافظون واعتبروه تغييرا ثوريا سابقا لآوانه .

وفي عام ١٩٣٥ اصدرت دار ماكميلان كتابا عنوانه « السنوات الخمس القادمة » وهو يتضمن مناقشات وبحوثا تدور حول المشاكل التي تواجهها بريطانيا . وقد اشترك في البحوث كثير من الاحرار والعمال وعدد قليل جدا من المحافظين من بينهم هارولد ماكميلان الذي اشترك في لجنة الصياغة ، وتضمن الكتاب كثيرا من الآراء التي كان يدعو اليها .

وقد تضمن الكتاب عدة موضوعات عن « التنظيم الصناعي » و « الصناعات الاشتراكية » وقد عارضه المحافظون بشدة وعنف ، في حين رحب به الاشتراكيون .

التمرد على الحزب

بعد الانتخابات العامة ، التي اجريت عام ١٩٣٥ ، أصبح ماكميلان من أعنف الناقدين لسياسة الحكومة الائتلافية ، التي كان يرأسها ستانلي بولدوين .

وبعد نشوب الحرب الابطالية العنيفة صرح ماكميلان بأن عصبية الامم قد فشلت في مهمتها ، ولكن هذا لا يدعو بريطانيا الى التخلي عنها ، لان الشعب البريطاني ايد انشاء هذه الهيئة الدولية ولا يزال يؤيد بقاءها .

وحينما تخلت الحكومة البريطانية عن مبدأ توقيع العقوبات على

إيطاليا عام ١٩٣٦ انضم ماكميلان الى النواب العمال في التصويت ضد الحكومة ، وكان هو العضو المحافظ الوحيد الذى عارض الحكومة .

ومنذ ذلك اليوم اعتبره مراقبو حزب المحافظين من المتوردين على الحزب ، وظل فترة يعمل بصفته عضوا محافظا مستقلا ، وكان يؤيد تشرشل في حملته ضد تشمبرلين ، وكان يصرح بأن من التفاف وصف اتفاقية ميونيخ بأنها « سلام عن طريق المفاوضات » .

وفي نوفمبر ١٩٣٨ انضم الى تشرشل في التصويت ضد الحكومة حينما رفضت انشاء وزارة للتأمين استجابة لرغبة تشرشل .

وفي أكتوبر ١٩٣٨ أجريت انتخابات فرعية في اكسفورد ، وكان مرشح المحافظين فيها اللورد هيلشام ومعارضه اللورد لندساي ، وقد وقف ماكميلان يؤيد لندساي ضد هيلشام ، مرشح حزبه . وقد اعتبرت تصريحات ماكميلان من انه سوف يؤيد معارض الحكومة ، ومقام به من تأييد عملي لهذا المرشح ، كانها اعلان صريح لخروجه على حزب المحافظين الذى ينتمى اليه ، ولكن الحزب لم يتخذ ضده أى اجراء ، ولعله فضل المهادنة على إثارة المتاعب .

وكان بين ماكميلان وتشمبرلين ود مقفود ، وكان تشمبرلين يشير اليه في مذكراته بعبارات عنيفة مقتضبة ، ويعتبره في مجلس العموم المتحدث باسم جماعة « مثيى الشعب » الذين يطالبون ببرنامج بريطاني يشابه برنامج « النظام الجديد » الذى أعدده روزفلت لتوسيع دائرة الخدمات الاجتماعية في الولايات المتحدة .

وعلى أية حال فان ماكميلان كان يعتبر عضويته في البرلمان وكالة من الشعب ، وكانت هذه الوكالة في نظره أهم بكثير من الولاء الحزبى .

الطريق الوسط

في عام ١٩٣٨ أخرج ماكميلان كتابا آخر تحت عنوان « الطريق الوسط » وكان هذا الكتاب تلخيصا لأرائه في المسائل الاجتماعية والاقتصادية ، وهى الآراء التى دعا اليها كثيرا فى مجلس العموم . وكان من أهم ما وجه اليه عنايته حالة الفقر والبطالة التى سادت بريطانيا فى ثلاثينات القرن الحالى وبخاصة انه قد قرأ كثيرا من مؤلفات كينز وبويد أور ، وزييوم راونترى . والاتجاه الغالب على الآراء التى تضمنها كتاب « الطريق الوسط » هو البحث عن علاج للبطالة والفقر ، بشرط ألا يكون علاجا شيوعيا ولا فاشيا ولا اشتراكيا ولا رأسماليا ، بل طريقا وسطا بين مختلف الاتجاهات المتعارضة . وقد احتوى الكتاب على فقرات تجعل عضو البرلمان المحافظ فى حيرة من أمر ماكميلان : هل هو راديكالى من اتباع لوييد جورج ؟ أو انه من أنصار الاشتراكية الغابية ؟ وكان

الاشتراكيون على النقيض من ذلك ، اذ لم يروا فيما عرضه من آراء الا انه غارق في النزعة المحافظة من قمة رأسه الى أخمص قدمه . وهناك فقرات أخرى في كتابه وبخاصة تلك الفقرات المتعلقة بمسائل التعليم والدخل ، تشعرك بأنه نائر على الفوارق الطبقية ، وانه يطالب بإلغاء المدارس الخاصة بآبناء الطبقات المتميزة بنشأتها وراثتها . كذلك كان يتجه في كتابه الى المطالبة بتخطيط صناعي كامل بدلا من التخطيط الجزئي .

وفي ختام كتابه كتب فصلا تحت عنوان «المشروعات العامة والخاصة» قرر فيه ان الاتجاه العام يسير نحو الادماج ، وأن التعاون سوف يحل محل المنافسة غير المقيدة . وتطور في تفكيره فدعا الى اعداد تنظيم شامل لتوزيع الاغذية الاساسية ، بحيث يلغى الوسيط بين المنتج والمستهلك ، وتشرف هيئة قومية على توزيع اللبن وغيره من الاغذية الاساسية على الأسر الفقيرة سواء كان رب الأسرة عاملا أو عاطلا . وهو هنا يقول :

ان اللبن والزبد والمسلط الصناعي والحلين والبيض والحيز والدقيق والبطاطس والسكر ، سلع يجب أن ينظم توزيعها ، لأنها تدخل تحت باب « المنافع العامة » .

وعلى الرغم من تصريحات ماكميلان المتكررة بأن إرادته بعيدة عن الاشتراكية فان المحافظين لم يكن في وسعهم الا الاعتراف بأنه قد ذهب شوطا بعيدا في الطريق الاشتراكي ، بل ان كارل ماركس لو كان حيا لرحب بأراء ماكميلان في الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي .

وكل من قرأ « الطريق الوسيط » الذي أخرجه ماكميلان عام ١٩٣٨ لايد أن يعتقد أن ماكميلان سوف ينتهي به المطاف الى أن يصبح رئيس وزراء اشتراكي . ولم يكن ماكميلان من العاطفين على حزب العمال ، ولكن خطبه ومقالاته وكتبه جعلت الكثيرين من أولئك الذين يعيشون عند مستوى الكفاف يهرعون الى الاجتماعات التي يعقدها في دائرته الانتخابية ليروا ماذا هو فاعل لتخفيف بؤسهم .

ومن المؤكد ان ماكميلان لم يقبل ان يدين بالاشتراكية كفسلفة ومبدأ ولكنه لم يتخذ موقفا عنيفا ضد دعاة الاشتراكية ، مثل موقف « الاتحاد المعارض للاشتراكية » . ولقد خرج من دراساته الكثيرة بأن المجتمع الرأسمالي مجتمع ضعيف البناء ، كما أن الغاية يعتمدها كثير من النقص .

وقبل أن نختم هذا الفصل لايد من الاعتراف بأن ماكميلان لم يكن قبل الحرب العالمية الثانية ، يخشى الاشتراكية ، ولكن بعد عام واحد جاءت الحرب وبقدموها انتهى ماكميلان من عهد التفكير المجرد والنظريات .

الحرب - وما بعدها

في أثناء الحرب الروسية الفنلندية ذهب ماكميلان إلى فنلندا، وبعد عودته إلى في مجلس العموم خطابا مستقيضا عما شاعده في رحلته . ووجه نقده إلى الحكومة لأنها لم تقدم إلى فنلندا قدرا كافيا من المعونة المادية . وكان قد أرسل ، في أثناء وجوده في هلسنكي بريقة إلى الحكومة البريطانية مطالبا بإرسال شحنة من البنادق ، ولكن حكومة بلاده تباطات في أجابة طلبه ، وقد علق على ذلك قائلا : أن هزيمة الفنلنديين ترجع في الغالب إلى نقص الأسلحة ، ولا ندرى بالتحقيق ماذا كان يحتمل أن تكون النتيجة لو أن الحكومة البريطانية أرسلت حملة إلى هذه البلاد ، ولكن المهم أن حادثة فنلندا ألقت ضوءا قويا على مافي الحكومة البريطانية من ضعف وتردد وغموض في الاتجاه وجهل بالأهداف . وقد وجه نقده العنيف إلى تشمبرلين ، الذي ظل ملازما للصمت في أثناء اللقاء ماكميلان لخطابه ولكن ما أن انتهى ماكميلان من اللقاء خطابه حتى وقف تشمبرلين للرد عليه واتهمه بتقديم معلومات خاطئة للمجلس . ولما سقطت وزارة تشمبرلين وتولى تشرشل رئاسة الوزارة ، أعطى ماكميلان منصبا وزاريا بأن عينه سكرتيرا برلمانيا لوزارة التموين ، وبعد علمين عينه وكيل لوزارة المستعمرات . وحينما نزلت قوات الحلفاء في الجزائر ، عين وزيرا بريطانيا مقيما في مركز قيادة الحلفاء في شمال أفريقيا ، وذلك في أواخر عام ١٩٤٢ . وقد ظل ماكميلان يشغل هذا المنصب ثلاث سنوات كان في خلالها على صلة وثيقة بالجنرال ايزنهاور في أثناء حملة الحلفاء على إيطاليا .

وفي شمال أفريقيا تعرف ماكميلان بديجول . وقد كتب ديغول في يومياته بتاريخ ١٧ مارس ١٩٤٣ يقول :

إن ماكميلان ناثور ، يطالب جميع الفرنسيين بالاتحاد تحت لواء الجنرال جيرو ، وفي خلال إحدى نوبات ثورته صراح قائلا : إذا رفض الجنرال ديغول اليد الممتدة إليه ، فيجب عليه أن يعلم أن أمريكا وبريطانيا العظمى سوف تتخليان عنه وبذلك يصبح وكأنه لاشئ .

وقد شهد ماكميلان بعد ذلك توقيع الهدنة الإيطالية ورافق أعضاء مركز قيادة الحلفاء في شمال أفريقيا حين سفرهم إلى إيطاليا ، وأصبح قائما بأعمال رئيس لجنة الحلفاء في إيطاليا . وفي أثناء الحرب الأهلية في اليونان أرسلته حكومته إلى هذه البلاد ليكون وسيطا بين الأحزاب اليونانية .

وفي عام ١٩٤٥ أجريت الانتخابات العامة في بريطانيا ، وهزم ماكميلان في دائرته الانتخابية أمام مرشح العمال ، ولكن حزب المحافظين بسط له كلتا يديه ، ومنذ ذلك الحين لم يعد في نظر حزبه « البرلماني الثالث » .

ولما تولت وزارة العمال الحكم ، رأى تشرشل أن ماكميلان خير من يقوم بتنظيم معارضة المحافظين ضد حكومة العمال ، ولذلك رشحه في

دائرة بروملي ، التي كانت مضمونة للمحافظين ، وتخلي من دائرته القديمة « ستوكتون » وما أن فاز ماكميلان بمقعده في البرلمان حتى جلس في الصفوف الامامية للمحافظين .

وفي أول خطاب له في المجلس الجديد أبدى دهشته من أن يرى زملاءه القدامى في مقاعد الوزراء ، فهناك أنيورين بيجان بجانب آتلي ، وارنست بيفن بجانب شتوبل . يالها من مفارقات ان تجلس الذئاب بجانب الحملان !

وهنا يتنبأ ماكميلان بما سوف تتمخض عنه الايام فيقول انه يشك كثيرا فيما سوف تكون عليه النهاية .

لقد كان البرنامج الاساسي لحكومة العمال يدور حول تأميم الصناعات الرئيسية ، وهو أيضا كان قد نادى من قبل بأنه يتطلع الى اليوم الذي يرى فيه هذه الصناعات منافع عامة . ترى ، هل لا يزال ماكميلان متمسكا بمبدئه القديم الذي يرجع الى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية ؟

هذا أمر مستبعد . فماكميلان الآن ليس سيد نفسه ، لقد كان في الماضي يتخذ مقعده البرلماني في الصفوف الخلفية ليعبر عن رأيه في حرية وانطلاق ، ولكنه اليوم في المقاعد الامامية لحزب المحافظين ، واذن فعليه أن يقف من حكومة العمال موقف المعارضة بكل الوسائل الممكنة . ولقد أحس أعضاء مجلس العموم بما طرأ عليه من تغيير . فقد كان من قبل يقود حملة اصلاح لبناء مجتمع بريطاني جديد ، أما اليوم فقد انتهت حملته وتخلي عن المهادنين ليعمل مع المرتزقة .

وحيثما عرض مشروع قانون تأميم صناعة الفحم على مجلس العموم للقراءة الثانية ، وقف ماكميلان ناطقاً باسم المحافظين .

وفي اليوم التالي أخذ أصحاب مناجم الفحم وكبار رجال الأعمال ورجال بورصة الأوراق المالية يقرأون الصحف في لهفة ليعرفوا ما تم في أثناء الجلسة البرلمانية ، ولكنهم اطمأنوا الى مقالته ماكميلان ، وأدركوا ان حزب المحافظين لم يخذلهم .

وفي ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٧ تكلم ماكميلان باسم المحافظين في اثناء مناقشته مشروع تأميم النقل في اللجنة البرلمانية ، فأيد المشروعات الفردية وعارض التأميم !

هكذا أصبح ماكميلان المتحدث من المقاعد الامامية باسم المحافظين ، ولقد اتخذ أسلوباً خطيبياً يذكركمنا بعهد جلادستون ، فهو يضع كلتا يديه على ثنية بسترته ، ويلتفت الى المقاعد الخلفية في انتظار الاستحسان والتأييد ويرفع صوته حتى ليشدد صوته في ارجاء دار البرلمان ، ثم يهبط به وكأنه الهمس الخافت . وهكذا ينتقل من حركة تمثيلية الى أخرى بدقة وانتظام حتى ليخيل اليك انه قضى الساعات الطوال ، في الليلة السابقة

واقفاً أمام الأزمة يستعرض ما سوف يقوم به من حركات تمثيلية في اليوم التالي .

لقد بدأت المعارضة تشك في اخلاصه وفي أنه يعبر عما يعتقده ، أما الصحفيون البرلمانيون فقد أدركوا أنه يحاول تقليد تشرشل في شبابه .

نحو الحرب الباردة

كان ماكميلان يتغيب كثيراً من مجلس العموم في هذه السنين ، وغالباً ما كان يقوم بزيارات للبلاد الأوروبية بسبب المحادثات الخاصة بالمجلس الأوروبي ، وقد ساعد تشرشل في تنظيم «حركة أوروبا المتحدة» كما أنه كان مندوباً بريطانياً في المؤتمر الأوروبي المنعقد في لاهاي بتاريخ مايو ١٩٤٨ . وقد ظل عضواً في المجلس المشترك لأوروبا المتحدة ورئيساً للجنة المركزية ولجنة شرق أوروبا . وفي عامي ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ وأوائل عام ١٩٥١ كان أحد مندوبي بريطانيا في الجمعية الاستثنائية للمجلس الأوروبي .

وظل يبدى اهتماماً كبيراً بالاتجاهات والحركات الخاصة بمستقبل أوروبا ، والتي تبلورت في معاهدة روما وإنشاء السوق المشتركة .

وقد كان ماكميلان يبدى تشاؤمه من مستقبل أوروبا . وقد أبلغ مرة هيو والتون قائلاً : أعتقد أن أوروبا قد انتهى أمرها ، ولو كنت شاباً لهاجرت من أوروبا إلى الولايات المتحدة .

وفي إحدى المناقشات ، التي جرت في مجلس العموم بتاريخ ٢٣ مارس ١٩٤٩ ، القى ماكميلان كلمة المعارضة باسم حزب المحافظين ، وكان يجهد بشدة مواصلة الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي ، كما عارض في تقوية العلاقات التجارية مع دول أوروبا الشرقية . وكان يوجه خطابه إلى المجلس قائلاً : لا تحاولوا تعزيز علاقاتكم بدول أوروبا الشرقية ، إذ لفائدة ترجى من وراء ذلك . ولا تقدموا لهذه البلاد البنائى لتأخذوا الزبد بدلاً منها . وإذا أردتم تبادل تجارياً فابحثوا عنه في بلاد الدومينيون . وفي بلاد الإمبراطورية البريطانية . وفي المستعمرات وفي أوروبا الغربية ، وبالجمل في كل ما يقع غرب الستار الحديدي .

وحينما ضرب السوفييت حصاراً حول برلين . واضطر الغرب إلى نقل الإغذية إلى برلين المحصورة عن طريق الجو لم يرض ماكميلان عن هذه السياسة ، واعتبرها مظهراً للضعف ، وكان من رأيه إما استخدام القوة المسلحة ، وإما المقاطعة الاقتصادية .

ونحن لا ندري علام كان يستند ماكميلان في دعواه حينما قال إن القوة المسلحة كانت خير إجراء يتخذ ضده روسيا ؟ وهل كان يعنى مايقول؟ وهل لو كان وزيراً للخارجية لفعل ذلك وتحمل مسؤولية مايرتب

على هذا الاجراء ؟ وهل كان يرى أنه لامانع من خوض غمار حرب من أجل برلين ؟ يبدو أن ماكميلان كان يجهل حقائق الموقف حينذاك ، كما أنه أخطأ تقدير موقف الاتحاد السوفيتي في أوروبا ، وهكذا كان اتهامه لحكومة العمال بالضعف عملا يدل على عدم تقدير المسئولية . لقد زار موسكو بعد ذلك بعشرة أعوام ، وشهد بنفسه كيف أن الغرب لم يتقدم الى الامام خطوة واحدة على الرغم من مرور فترة طويلة من الحرب الباردة ، حتى لقد اعترف أخيرا بأنه لا بد من وضع حد لهذه الحرب .

وحينما القى تشرشل خطابه المشهور في فالتون بالولايات المتحدة ، ذلك الخطاب الذي اعتبره الاتحاد السوفيتي بداية الحرب الباردة ، رحب ماكميلان كثيرا بهذا الخطاب واعتبره عين الحكمة والصواب ، ولكنه حينما تولى رئاسة الوزارة بعد ذلك بعشر سنوات صرح بأن من الحكمة ، التريث والصبر والاحتمال ، وأنه يفضل أن يكون حكما بين أمريكا والاتحاد السوفيتي من أن يشترك في هذه الحرب الباردة . وأعرب عن أمله في أن تطرح للبحث السياسة التي رسمت خطوطها في فالتون ، وكذلك حلف الاطلنطي وسباق التسلح ، لأن هذه الاتجاهات سوف تؤدي بالعالم الى كارثة حرب عالمية ثالثة .

وإذا ما عرضنا لموقف ماكميلان من العلاقات بين بريطانيا وأوروبا نراه يجد الارتباط مع أوروبا ، ولكنه يتحفظ قائلا : لا اعتقد أن في استطاعتنا أن نقوم بدورنا في أوروبا بصفقتنا الشخصية فقط ، أي بصفقتنا شعب وحكومة المملكة المتحدة . فنحن مركز الكومنولث والامبراطورية ، واذن فارتباطنا مع أوروبا يكون على أساس هذه العلاقات .

والنتيجة التي تؤخذ من آراء ماكميلان هذه ، هي أنه لو خير بين أوروبا والكومنولث لما تردد في اختيار الكومنولث .

وفي ١٤ فبراير سنة ١٩٥١ قاد هجوما شنته المعارضة على حكومة العمال بسبب سياستها الدفاعية ، وكانت حكومة العمال قد أعدت برنامجا واسعا للتسلح ، وقدم شنويل ، وزير الدفاع العمالي الى مجلس العموم تقديرات لميزانية الدفاع بلغت ١٥٠٠ مليون جنيه استرليني موزعة على ثلاث سنوات .

وقد وقع الاختيار على ماكميلان ليتحدث باسم المعارضة في اثناء الرد على مشروع ميزانية الدفاع . ولم يعترض ماكميلان على تقديرات الميزانية التي قدمها الوزير العمالي ، ولكنه عاب على حكومة العمال معارضتها لمشروع تعزيز الدفاع المدني ، كما طالب بانتاج عدد كبير من القاذفات على أن يتم ذلك بعيدا عن منطقة الخطر ، وليكن في الولايات المتحدة أو في إحدى بلاد الكومنولث .

ويستخلص من خطاب ماكميلان أن المحافظين كانوا يريدون تعزيز القوات المسلحة الثلاث ، ولذلك فهم يطالبون بميزانية دفاع أضخم من تلك التي قدمها شنويل . والغريب أن برنامج الدفاع الضخم ، الذي أعده العمال ، بالإضافة الى الحرب الكورية ، أثقلا كاهل الميزانية فارتفعت الاسعار الى حد كبير ، وتطور الموقف الى أزمة مالية حادة .

وعلى الرغم من موافقة المحافظين التامة على تعزيز الدفاع وعلى الاشتراك القوى في الحرب الكورية ، فقد أخطوا حين حدثت الازمة بتدوين بحكومة العمال ويقولون ان اسباب الازمة هي عدم كفاية هذه الحكومة وتخطيطها في سياستها وتنفيذها لبرنامج التأمين وظل ماكميلان الى عدة سنوات فيما بعد ، كلما تحدثت عن حكومة العمال ، أعلن للملا أنهم هم الذين دفعوا بالبلاد الى هاوية الافلاس . ولما سقطت حكومة العمال وتولى تشرشل رئاسة الوزارة عين ماكميلان في منصب وزير الصحة في وزارته الجديدة .

برنامج الاسكان

حين كتب ايان ماكليود ترجمة لتفصيل تشمبرلين قارن أعمال هارولد ماكميلان في وزارة الصحة والحكم المحلي بعد الحرب بأعمال نيفيل تشمبرلين في هذه الوزارة في فترة ما قبل الحرب ، ولكن كسائب الترجمة نسي أو تناسى حقيقة هامة وهي أن تشمبرلين ليس صاحب الفضل في برنامج الاسكان ، اذ أن هذا البرنامج كان قد أعده من قبل جون هويلتي ، الوزير العمالي للصحة والاسكان في وزارة العمال التي تولت الحكم عام ١٩٢٤ . وإذا كان تشمبرلين قد وجد أمامه برنامج هويلتي معدا فنقله فان ماكميلان وجد أمامه أيضا برنامجا للاسكان أعلنه حكومة العمال في الفترة التي تولت فيها الحكم من ١٩٤٥ الى ١٩٥١ ، وإن كان لماكميلان بعض الفضل فهو في تنفيذ البرنامج لا في اعداده .

ولما كان ماكميلان يعلم أن التنفيذ الكامل لبرنامج الاسكان سوف يكون تحديا لأصحاب المشروعات الفردية الكبرى والملاك وكبار المضاربين في البورصة ، ولذلك لم يشأ أن يذهب في تنفيذ مشروعه الى الحد الذي يعترض مصالح تلك الفئات التي كان حريصا على ارضائها ، ولذلك ففي التشريعات الخاصة بالاسكان أدخل كل المواد اللازمة لحماية مصالح هذه الفئات ، وعمل على ارضائهم بجميع الوسائل الممكنة ، وفي حين كان يلقي خطبا نارية في السياسة الخارجية ضد المهادنة كانت سياسته الداخلية كلها استرضاء لطبقة أصحاب المصالح !

وهكذا تبين أن قانون الإيجارات ، الذي أعده ماكميلان وهو وزير للاسكان ، كان أكبر ترضية للملاك على حساب الكادحين من الطبقة العاملة .

ومن ناحية أخرى فان حملة الدعاية التي قام بها ماكميلان وأكد فيها للشعب البريطاني انه سوف يحل مشكلة الاسكان . أصبحت مجرد وعود جوفاء ، ففي عام ١٩٥٥ وضعت الحكومة البريطانية خطة خمسية لازالة (العشش) ، وكان المشروع يقضي بازالة ٣٧٨ ألف مشة حتى عام ١٩٦٠ . وبعد أن مرت السنوات الخمس ظهر أن الخطة باءت بالفشل ففي

خفين كان المقرر هو ازالة ٧٥ ألف عشة كل سنة لم تستطع الحكومة الأزالة ٥٢ ألف (عشة) فقط ، أى ان العجز فى نهاية ١٩٦٠ كان ١٢٣ ألف (عشة) .

واذا قارنا ما حققه مشروع الاسكان فى بريطانيا بمثيله فى كل من فرنسا وهولنده والنرويج والسويد والمانيا الغربية فى الفترة من ١٩٥٨ الى ١٩٦٠ تبين لنا مايلى:

تقدمت مشروعات الاسكان فى فرنسا بمعدل ٢٠٦ مسكن لكل ألف من السكان ، وفى هولنده بمعدل ٢٢٩ فى كل ألف ، وفى النرويج بمعدل ٢٢٥ فى الالف ، وفى السويد بمعدل ٢٦٨ فى الالف وفى المانيا الغربية بمعدل ٣٠٥ فى الالف ، أما فى بريطانيا فان تقدم مشروعات الاسكان لم يزد على ١٦٨ مسكن لكل ألف من السكان .

ومن هنا يتبين لنا مدى نجاح حملة الاسكان التى أعلنها ماكميلان . ولما استقال اللورد الكسندر من وزارة الدفاع ، وقع اختيسار تشرشل على ماكميلان ليخلفه فى هذه الوزارة .

ظل القنبلة

كانت أول جملة تضمنها الكتاب الابيض ، الذى قدمه ماكميلان الى مجلس العموم فى مارس ١٩٥٥ ، بصفته وزيرا للدفاع ، هى الجملة التالية :

ان ظهور القنبلة الهيدروجينية عام ١٩٥٤ قد غطى على كل ماعداه من أحداث سابقة . وبظهورها تبرز أمامنا مشكلات جديدة من نوع ثورى يتطلب حلها الشجاعة وسعة الأفق .

وكانت هذه الجملة أشد عبارات الكتاب الابيض اثاره للفرع والنشأؤم ، بل هى أهم جملة خطها قلم ماكميلان .

وتلت هذه العبارة فقرة طويلة عن الاسلحة النووية وكيف نشأت وتطورت ، ثم ما أجرته الولايات المتحدة من تجارب حرارية نووية ، وقال ان أمريكا تعمل جاهدة لانتاج أكبر كمية من هذه الاسلحة النووية الخطيرة ، وان الاتحاد السوفيتى يقتفى أثرها فى هذا الميدان .

وهنا استدرك قائلا : نحن لاندرى متى يستطيع الاتحاد السوفيتى انتاج أسلحة حرارية نووية يمكن استخدامها فى العمليات الحربية .

وجاء فى الكتاب الابيض :

» ان المملكة المتحدة لديها القدرة على انتاج مثل هذا السلاح . وبعد

أن بحثت الحكومة كل الملبسات التي تحيط بهذا الموضوع رأيت من أجبها أن تبدأ بصنع هذه القنبلة الخطيرة وانتاج كميات منها .

من هنا يتضح ان حكومة ماكميلان قد ألزمتنا باتباع استراتيجية القنبلة الهيدروجينية ، ولقد أبلغنا الخبراء عن مدى القوة التدميرية لهذه القنبلة الفائقة في قوتها ، وأدركنا أنها أضعاف أضعاف قوة القنبلة الذرية التي أقيمت على ناجازاكي أو هيروشيما عام ١٩٤٥ ، وليست هناك حدود علمية ولا فنية تحول دون انتاج اسلحة نووية أشد فتكا وتدميرا .

والى القارىء بعض ما قيل عن القوة التدميرية لهذه الاسلحة :

« اذا استخدمت هذه الاسلحة في الحرب فانها تسبب فناء الانسان والمادة كلها على نطاق لا يتصوره العقل . واذا ما فجرت القنبلة الهيدروجينية في الجو فان قوة التفجير والحرارة المنبعثة منه سوف تدمر منطقة واسعة حولها . واذا فجرت على الارض فان التدمير وقوة التفجير قد يكونان أقل من ذلك نسبيا ولكن هنا آثار خطيرة جدا غير مباشرة ، ذلك أن الهواء سوف يمتص كميات كبيرة من جزيئات الذرة ، وبعد فترة تهبط بعض هذه الجزيئات الذرية على المنطقة التي تم فيها التفجير ، ولكن جانبا كبيرا منها سوف يحمله الهواء الى جهات أخرى ثم يهبط به على الارض على صورة اشعاعات نووية .

وتركز الاشعاع النووي على منطقة ما ، وسوف يعرض كل من بالمنطقة ، ممن لا يلجأون الى المخابئ الذرية ، لموت محقق في كل المنطقة التي يتركز فيها الاشعاع ، ويقل الخطر تدريجيا كلما ابتعدنا عن منطقة التركيز . ومن هنا يتبين أن بعض المناطق سوف يصيبها التدمير التام ، وأن بعض المناطق الاخرى سوف تصبح غير صالحة للسكنى بصفة تامة . أما وسائل المواصلات والخدمات الاساسية ، من ماء ونور وغيرها من المرافق ، فسوف تتوقف حركتها توقفا تاما . والجهاز الحكومي ، سواء كان مركزيا أو اقليميا ، سوف يصيبه الشلل الجزئي أو الكلي . أما الانتاج الصناعي فسوف يصيبه تعطل كبير بسبب انقطاع الماء والكهرباء والخامات والعمال . . الخ ، هذا على فرض أن المصانع قد بقيت على حالها ولم يصيبها التدمير .

يلي ذلك مشكلات كبرى خاصة بتنظيم المجتمع وتغذيته وإيوائه ، وخاصة أن الروح المعنوية للشعب سوف تنهار انهيارا خطيرا . وهكذا تصبح المعركة ، معركة من أجل البقاء تحت أسوأ الظروف .

وجاء في الكتاب الابيض ، الذى قدمه ماكميلان لمجلس العموم ، أن هذه الحقائق يجب أن تكون معروفة للجميع ، لا فى بريطانيا وحدها بل فى العالم كله أيضا ليدرك الكل ما قد تؤدي اليه حرب نووية من أخطار وأهوال .

تلك هي الحقائق المتعلقة بالقنبلة الهيدروجينية . ولم يقتصر الكتاب الابيض على مجرد إثبات مافى استخدام القنبلة الهيدروجينية من هلاك

محقق ، ولكنه ربط بريطانيا بما أطلق عليه فيما بعد « سياسة الرادح النووى » .

ولقد ظل مجلس العموم يناقش الكتاب الابيض طوال يومين كاملين فى جلسات تاريخية . وقد افتتح المناقشة ونستون تشرشل ، وكان خطابه من أطول الخطابات التى ألقاها فى مجلس العموم وهو رئيس للوزارة البريطانية . وانتهت المناقشة بالخطاب الذى ألقاه ماكميلان بصفته وزير الدفاع .

وقد ازدحمت أهباء المجلس بالزائرين لسماع خطاب تشرشل ، فقد كان حينذاك لا يزال أعظم خطباء المدرسة القديمة فى مجلس العموم . وما كان أحد ليجارىه فى هذا المضمار غير انيورين بيفان ، ولكنه كان فى بعض النواحي أقل مستوى من تشرشل .

بدأ تشرشل خطابه بعرض عام لتطور العلوم النووية قائلا ان القنبلة الذرية ، مع ما فيها من أخطار جسيمة ، لا تنتقل بالخيال خارج دائرة الاحداث التى يمكن للعقل البشرى أن يسيطر عليها ، سواء فى وقت السلم أو فى وقت الحرب . ولكن حينما قدم ستيرلنج كول ، رئيس لجنة الابحاث النووية فى الكونجرس الأمريكى ، أول بيان شامل عن القنبلة الهيدروجينية فى ١٧ من فبراير ١٩٥٤ قلب الاسس التى قام عليها المجتمع الانسانى رأسا على عقب ، وأحدث ثورة فى شئون البشر . وجعلنا فى موقف لا يدرك كنهه ولا نعرف مدى ما ينطوى عليه من فناء محقق للبشر .

وهنا أشار تشرشل الى صندوق الاقتراحات قائلا : ان كمية من مادة البلوتونيوم التفجيرية ، - وقد تكون أقل مما يملأ هذا الحيز الضيق الذى أشير اليه - كافية لمنح أى دولة كبرى سيطرة لا حد لها اذا امتلكتها وحدها . وليست هناك وسيلة دفاعية ضد هذه القنبلة الهيدروجينية ، كما أنه ليست هناك فى الوقت الحاضر أية وسيلة أمام أى دولة لوقاية أراضيها من التدمير النووى .

وهنا تساءل تشرشل : ماذا يجب علينا أن نفعل ؟ وأى طريق نسلك لانقاذ حياتنا وحياة البشرية كلها ؟ أما العجائز فلا أهمية لهم فى هذا الميدان فهم على أى حال ذاهبون قريبا الى مصيرهم المحتوم ، ولكن قلبى يفيض ألما حينما أتصور الشباب وما فيه من حيوية وحماة ونشاط ، والاطفال وهم يقومون بألعابهم المرحية . وأقول لنفسى : ماذا يكون مصير هؤلاء لو أن الله تخلق عن البشر ؟ .

لقد ألقى تشرشل سؤاله الهام ، وهو : « ماذا يجب علينا أن نفعل ؟ » ولكننا انتظرنا عبثا فى أثناء خطابه الطويل عله يبعث الطمأنينة الى قلوبنا باقتراح فى جعلته لحل هذا الاشكال . فإذا انتقلنا الى الكتاب الابيض وما فيه من تقصيدات واحصاءات وأرقام عن السفن والمدافع والدبابات والقاذفات لم نجد ردا شافيا . والذى يستخلص من كل ما قاله تشرشل أن هذه الوسائل الدفاعية لم تعد لها أية أهمية أمام القنبلة الهيدروجينية .

وبالإضافة الى المبالغ الطائلة التى انفقناها على التسليح ، منذ ان بدأت حكومة العمال برنامج التسليح ، علينا الآن أن نفق أموالا طائلة جديدة على القنبلة الهيدروجينية وملحقاتها مما تتطلبه الحرب النووية .

كانت حكومة العمال فى كتابها الابيض قد اقترحت انفاق ١٥٠٠ مليون جنيه استرلينى على الدفاع موزعة على ثلاث سنوات . وقيل لنا ان بريطانيا ، بعد تنفيذ هذا البرنامج ، تستطيع أن تجلس الى مائدة المفاوضات فى مواجهة السوفييت وتتكلم من مركز القوة . ولكن لم تبد حتى اليوم أى دلالة على أننا أصبحنا أكثر قوة من السوفييت ، بل على العكس من ذلك ، فكل الدلائل تشير الى أننا يجب أن نفق مبالغ خيالية حتى نمنع السوفييت من اللحاق بنا . ولم يعد حديث الحكومة اليوم عن برنامج دفاعى يقتضى انفاق ١٥٠٠ مليون جنيه استرلينى على ثلاث سنوات ، ولكن يجب أن نستعد لانفاق مثل هذا المبلغ فى ميزانية دفاعية واحدة فقط باعتباره الحد الأدنى لما يتطلبه الدفاع .

ولقد ذكر لنا تشرشل فى خطابه أنه ليست هناك « وسيلة دفاعية مطلقة » أمام القنبلة الهيدروجينية . ولم تبد حتى اليوم أية إشارة الى أن السوفييت خروا سجدا أمامنا فى ذلة متوسلين الينا أن نبدأ المفاوضات ، بل انهم على العكس أصبحوا أشد عنفا وصلابة من ذى قبل . ومعنى ذلك أن برنامجنا الدفاعى الجديد لم يرغبهم على السير البطيء فى برنامج التسليح ، بل دفعهم الى مضاعفة الجهد فى اعداد وسائلهم الدفاعية . وهكذا نستنتج من كلام تشرشل انه لم يبق أمامنا من وسيلة غير التسابق فى التسليح ، وهذا ما نستنتجه من هذه العبارة التى وردت على لسان تشرشل فى أثناء الخطاب وهى : « أود أن أكرر وأؤكد أن موضوع خطابى كله يدور حول عبارة واحدة وهى «الرادع النووى» ذلك ان القنبلة الهيدروجينية قد اقتحمت ، بشكل مذهل ، ميدانين وهما : حياتنا المادية وحياتنا الفكرية .

ومضى تشرشل يقول : ان باب الأمل أمامنا لا يزال مفتوحا، ففى السنوات العشر القادمة سوف يصبح الرادع النووى من القوة على درجة يستطيع معها أن يسيطر على الموقف ، وهنا يبدأ فى جنى ثماره . وقد يجرى اليوم الذى تسود فيه العدالة الانسانية وينتشر الاخاء الانسانى ويرفرف فوق العالم لواء الحرية ، وتسير الاجيال القادمة بخطى ثابتة الى الامام . فلا تنكصوا على أعقابكم ولا تملوا ولا تستسلموا لليأس والقنوط .

هذا أسلوب شعرى جميل ، ولكنه لن يفنى شسيتنا عن الحقيقة المزعجة ، ولا ينطوى على سياسة دفاعية ، وتشرشل نفسه قد أبلغنا فى صراحة أنه لا حيلة لنا أمام القنبلة الهيدروجينية .

وبعد ان نزل تشرشل عن منبر الخطابة اعتلاه شنويل ، وزير الدفاع فى وزارة العمال السابقة ، فوجه أسئلة محددة بددت ذلك الجو الشعرى البديع الذى أشاعه خطاب تشرشل .

قال شنويل : لقد ذكر رئيس الوزارة اننا نستطيع الرد على هجوم

سوفييتى بهجوم مضاد على أراضيهم الواسعة المكشوفة ، وتحدث تشرشل عن قدرة بريطانيا على مضاعفة الرادع النووى البريطانى ضد الانحسار . السوفييتى بحيث تصبح أراضيهم الواسعة وسكانه المبعثرون هنا وهناك مكشوفة أمام الهجمات البريطانية ، بقدر ما أن جزيرتنا الصغيرة وأوربا الغربية المزدحمة بالسكان مكشوفة أمام الهجوم السوفييتى أو بما يقرب من هذا القدر .

ولكن اذا هاجمنا السوفييت ورددنا بالهجوم على أراضيهم الواسعة فهناك هدف واحد مكشوف بدرجة تفوق كل هدف آخر ، ذلك هو لندن والموانئ البريطانية . فهل يتصور أحد أن فى استطاعتنا تحمل هجوم من هذا النوع ؟ واذا أمكن ذلك فالى متى ؟ ليس أمامنا فى هذه الحالة الا الفوضى والاضطراب والفرار والهجرة على أوسع نطاق وهكذا تسود الفوضى كل شيء . حقا ، اننا نستطيع توجيه ضربة انتقامية ولكن العضو المحترم (تشرشل) يقول ان الهجوم النووى السوفييتى سوف يكون قد قضى على الملايين ، فهل يرضيك أن تموت لأن غريك سوف يموت بعدك ؟ .

فقال تشرشل : ان الخوف من الموت قد يمنع الاقدام عليه من الطرفين .

وقد كانت هذه وجهة نظر ماكملان فى السنوات التالية .

وقال شنويل : اذا كان العضو المحترم (تشرشل) يدعو الى اعداد رادع نووى لمنع الاتحاد السوفييتى من هجوم نووى أو لالتقسام منه اذا شن على بريطانيا هجوما نوويا . فلماذا يتمسك تشرشل بنظامنا الدفاعى الحال وما فيه من أسلحة برية وجوية وحربية ؟ ان هذه اذا كانت قد وقت بأغراضنا فى الماضى فلا قيمة لها فى الموقف الجديد طبقا للوصف الذى قدمه لنا (تشرشل) .

وتحدث شنويل عن المبلغ الصغير المخصص للدفاع المدنى ، وهو ٧٠ مليون جنيه استرلينى ، قائلا : هل بهذا المبلغ نستطيع مواجهة ما يقتضيه الدفاع المدنى لحماية السكان ؟ واذا كانت الحكومة ترى أنه ليست هناك وسيلة للدفاع ضد القنبلة الهيدروجينية فلتصارع الشعب بذلك ، حتى يعرف الموقف على حقيقته . واعتقادي أن الحكومة لما أدركت أنه ليست هناك وسيلة لحماية السكان لجأت الى الرادع النووى .

وتساءل شنويل : ما سياسة الحكومة الدفاعية ؟ .

ثم قال : لقد أشار الكتاب الابيض فى العام الماضى الى احتمال حدوث هجوم ذرى وما يتبع ذلك من «حرب كسيحة» ولا يمكننا اليوم أن نتحدث عن هذه الحرب الكسيحة بعد اكتشاف القنبلة الهيدروجينية التى سوف تهلك الناس باللايين وتدمر المدن والموانئ وتوقف حركة الشحن والتفريغ والنقل .

ولم تكن الاسئلة التى وجهها شنويل هى ما يدور فى رأسه وحده . بل كانت متواترة على السنة الجميع . واستنتج البريطانيون أن القنبلة الهيدروجينية ليست وسيلة دفاعية ولكنها « رادع نووى » واذا كان المبدأ

الآن هو « الردع » فكل ما ينفق على الجيش والاسطول والسلاح الجوي يدخل تحت باب الردع حتى وإن لم يكن نوويا .

وهكذا أصبحت كلمة « رادع » علما ، وصار البريطانيون يكتبونها بحرف كبير .

وأعقب شنويل انيورين بيفان : ولم يكن بيفان حينما ألقى خطابه ، في الصفوف الامامية للمعارضة ، ولكنه اتخذ مقعدا جانبيا ، لأنه كان في ذلك الوقت قد استقال من وزارة العمال « المرتقية » والمقصود بها تحديد الوزارات التي سوف يتولاها أشخاص معينون من أعضاء البرلمان الحزبيين حينما يتسولى حزبهم الوزارة . وبعد أن ألقى بيفان خطابه طرده حزب العمال من هيئته البرلمانية ، وكان على وشك أن يطرد من اللجنة التنفيذية لحزب العمال .

ولكن خطابه هذا كان من أحسن ما قيل عن القنبلة الهيدروجينية ، وكانت أسئلته موجهة الى أصحاب المقاعد الامامية من أعضاء حزب العمال في مجلس العموم .

بدأ بيفان بالإشارة الى خطاب تشرشل ، فقال ان بلاغته قد غطت على آرائه العادية التي لم تأت بجديد ، وهذا صحيح لأن تشرشل أصهـب في وصف الآثار المدمرة للقنبلة الهيدروجينية دون أن يقترح العلاج الناجح ، وماسوف تفعله حيال هذا الخطر الداهم .

وقال بيفان : ان تشرشل وماكميلان وجها انتقادا مرا الى البرنامج الدفاعي الذي أعدته وزارة العمال عام ١٩٥١ فليبينوا لنا الآن ما همم فاعلون . ومضى بيفان يقول ان البرنامج ، الذي أعدته وزارة العمال عام ١٩٥١ كان قد بنى على أساس افتراضات خاطئة ، وقد كانت هذه الافتراضات نتيجة لمشورة رؤساء القوات المسلحة في أمريكا وبريطانيا ، وتتلخص في أن السوفييت ، في مدى ثلاث سنوات ، سوف يملفون القمة في الاستعداد العسكري ، وان هذا قد يؤدي الى تفكيرهم في غزو أوروبا الغربية ، وعلى الغرب أن يعمل ما في وسعه لمواجهة مثل هذا الاحتمال . وبالاختصار : ان الخطر سوف يبلغ مداه في أواخر عام ١٩٥٣ .

وهانحن أولاء اليوم في عام ١٩٥٥ ، ومع ذلك فلم يحدث الخطر ، ونحن من جانبنا لم نفعل شيئا لدفعه .

لقد تكلم العضو المحترم (تشرشل) أمس قائلا ان مبدأ الردع كامن في ثابايا القنبلة الهيدروجينية ، وأنه من المحتمل بدء المفاوضات عاجلا بين الشرق والغرب وان هذه المفاوضات قد تؤدي الى السلام طالما أن استخدام القنبلة الهيدروجينية سوف يكون عملا انتحاريا من كلا الطرفين . وإذا كان الأمر كذلك فما لنا صبرنا كل هذه المدة حتى يخلق بنا الروس ويصنعون قنبلتهم الهيدروجينية ؟

لقد أخبرنا تشرشل اننا يجب أن نتفاوض من مركز القوة ، وكلما ازدادت قوتنا ، مال الروس الى التفاهم والتراخي . وعاد تشرشل ليخبرنا

ان الروس لم يحصلوا بعد على القنبلة الهيدروجينية ولا على الغازات التي تحملها وأن الغرب يحتكر هذا الميدان . وما دام الأمر كذلك فلدينا ميزة المفاوضة من مركز القوة . فلماذا لا نرسل مذكرات الى الكرملين نطلب منه أن يجتمع معنا للمفاوضات ؟

والغريب في الأمر أن هذه المذكرات بدلا من أن تصدر من لندن أو واشنطن أو موسكو ، صدرت من موسكو أيضا . ولقد أدرك رجل الشارع حقيقة موقفنا وهو أننا لسنا أهلا للتفاوض من مركز القوة .

وإذا كان ما يقوله تشرشل حقا وهو رئيس للوزراء فلماذا لا يصير على عقد اجتماعات مع الزعماء السوفيت ؟ يبدو لي ان رئيس الوزراء يريد ذلك ولكن أمريكا تمنع من اتخاذ هذه الخطوة . وهذا - ان صبح - أمر محزن حقا ، لأننا معرضون للفناء ومع ذلك فليس في مقدورنا أن نمد أيدينا الى العدو للتفاهم لسبب واحد فقط ، وهو اننا تحت رحمة أمريكا .

لقد كان بيفان في عبارته الاخيرة ينطق بالحقيقة التي لا شك فيها والتي أثبتت صحتها السنوات التالية ، فقد أصبحت بريطانيا فعلا «ذئبا» من اذئاب الولايات المتحدة، وأصبحت سياستها حيال الاتحاد السوفيتي تخضع لتوجيه من واشنطن ووزارة الدفاع الامريكية .

قد تهلك بريطانيا هلاكا تاما نتيجة لقرار يتخذ في واشنطن ، وهذه الحقائق كانت نتيجة حتمية للسياسة التي بدأتها وزارة العمال حينما وافقت على توقيع معاهدة شمال الاطلنطي ، واستمرت هذه السياسة تحت حكومة تشرشل ، وظهرت بوضوح حينما أصبح ماكملان رئيسا للوزارة .

وأخيرا وقف ماكملان ليلقي خطابه ، فتحدث عن أهوال الحرب وما جرى من مذابح في الحرب العالمية الاولى في وادي السدم وفي باشنديل ، حيث بلغت الاصابات ٣٦٠ ألفا . أما في الحرب العالمية الثانية فكان المصاب أدهى وأمر ، ولم يقتصر أمره على المحاربين ولكنه أهلك الابرياء من المدنيين .

وقال ماكملان اذا كان مبدأ تحريم القنبلة الهيدروجينية يعني أننا نحارب بلا أسلحة نووية فأنا ضد هذا المبدأ ، لأن قوانيننا التقليدية لا تستطيع مواجهة القوى البشرية الهائلة التي يملكها المعسكر الشرقي . واستنكر ماكملان الفكرة القائلة بأنه يمكن اجراء الحرب بالاسلحة التقليدية فقط ، وطالب بانتساج القنبلة الهيدروجينية ، وذلك لمواجهة القوى البشرية المتفوقة التي لدى المعسكر الآخر . وافترض ماكملان أن الغرب سوف يظل متفوقا على الاتحاد السوفيتي في التسلسل النووي ، ولكن الايام أثبتت خطأ تفكيره ، اذ على النقيض من ذلك ، أصبح التفوق النووي في جانب الاتحاد السوفيتي وليس في جانب بريطانيا .

ومضى ماكملان في خطابه فتحدث عن موضوع نزع السلاح فقال ان نزع السلاح يجب أن يقوم على مبدئين ، أولهما : أن يكون شاملا ، وثانيهما أن يقتصر به نظام مناسب للإشراف والمراقبة . وفسر الشمول بأنه يضم جميع الاسلحة قديمها وحديثها ، من أسلحة تقليدية ونووية ، أما نظام

المراقبة فيقتضى وجود لجنة دولية عليا لديها سلطات حقيقية واسعة للقيام بمهمتها . وإذا قيل ان هذا من شأنه أن يرفع الامم المتحدة أو أى لجنة عليا أخرى مقترحة ، الى مستوى الحكومة العالمية ، فليكن ذلك فهو أخف الضررين ، ولسوف ينتهى المطاف بالبشرية الى هذا الوضع ، سواء كان ذلك عاجلا أو آجلا .

وكانت أضعف نقطة فى خطاب ماكميلان ، وفيما تضمنه كتابه الابيض عن برنامج الدفاع ، هي النقطة الخاصة بالدفاع المدني ، فقد أثبت فى الكتاب الابيض أن كل محاولة لتجنب أخطار القنبلة النووية لا فائدة منها . وقد حاول فى الخطاب أن يدافع عن وجهة نظره ، فقال ان اعتمادات الدفاع المدني لن تحول دون وقوع الكارثة ولكنها سوف تخفف من أثرها ، ثم مضى يغطى على ما فى هذه النقطة من ضعف بأسلوب أدبي رائع ولكنه بعيد كل البعد عن الاقناع .

الضرب على وتر واحد مع مولوتوف

لما تولى ايدن رئاسة الوزارة فى ابريل ١٩٥٥ أخذ يبحث عن شخص ليخلفه فى وزارة الخارجية ، وقد وجد ضالته فى شخص اللورد سالسبورى ، إذ كان له من الخبرة والخلق القوى ما يستطيع به تحمل أعباء هذا المنصب الخطير ، ولكن اعترض تحقيق هذا الامل أن سالسبورى كان عضوا فى مجلس اللوردات . وكان ايدن يرى أن وزير الخارجية لا بد أن يكون عضوا فى مجلس العموم . لذلك وقع اختيار ايدن على هارولد ماكميلان ، ليكون وزيرا للخارجية ، وبخاصة انه سبق أن اشتغل وزيرا بريطانيا فى شمال افريقيا فى أثناء الحرب ، وبذلك اكتسب خبرة دبلوماسية باحتكاكه بالامريكيين والسوفييت والفرنسيين وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة . وفوق ذلك فقد كان مظهره وتربيته فى ايتون واكسفورد والحرس الملكى كلها عوامل تجعل اختياره لائقا لوزارة الخارجية .

وقد تولى ماكميلان وزارة الخارجية ، وبريطانيا تمر بحوادث دولى هام ، وهو توقيع معاهدة الصلح مع النمسا فى ١٥ من مايو ١٩٥٥ . وقد اجتمع لهذا الغرض ، فى فيينا ، وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى والنمسا . وقد لاحظ ماكميلان أن أهالى النمسا استقبلوا توقيع المعاهدة بحماسة طامسة ، لأن بلادهم أصبحت محايدة ، شأنها فى ذلك شأن سويسرة والسويد ، ويفضل هذا الحيناد سوف لا يتورط النمسيون فى الانضمام الى حلف وارستو أو حلف الاطلنطى .

وبعد توقيع المعاهدة ألقى مولوتوف ، وزير خارجية الاتحاد السوفييتى خطابا وجه فيه الثناء الى النمسا التى استطاعت أن تحقق

استقلالها وحريتها بعد كفاح دام عدة سنوات ، وأن المعاهدة تبدأ عهدا جديدا في العلاقات الدولية ، وأعرب عن أمل الاتحاد السوفيتي في أن يكون حل مشكلة النمسا بداية لحل كثير من المشاكل الدولية ، وأن تقتفى دول أخرى أثر النمسا حتى تزداد دول الحياد في وسط أوروبا .

وأعقبه ماكميلان فقال ان توقيعه للمعاهدة ، باسم ملكة بريطانيا ، شرف عظيم له ، وأعرب عن تقديره لجهود وزراء الخارجية البريطانيين الذين سبقوه بالاشتراك في المحادثات الخاصة بالمشكلة النمساوية ، وهم ارنست بيغن ، وموريسون ، وانطوني ايدن . وهنا بدأ يضرب على الوتر نفسه الذي سبقه اليه مولوتوف ، قائلا ان هذه المعاهدة بداية عهد جديد في تاريخ النمسا .

وفي ٢٢ من يونيو ١٩٥٥ ذهب ماكميلان الى سان فرانسيسكو ، للاشتراك في الاحتفال بالعيد العاشر للأمم المتحدة . وهناك التقى خطانا جاء فيه : مهما جاء به المستقبل من أحداث فيجب أن تظل الامم المتحدة قائمة ، وقد وطلت بريطانيا العزم على أن تتخذ هذا الجهاز الدولي طريقا للتعاون ، والمكان الوحيد الذي تعرض فيه المشكلات الدولية ويبحث لها عن حل .

وقد ظل ماكميلان يظهر حماسه للأمم المتحدة ما دامت اجراءات النمسا لاتعارض مع مصالحة بريطانيا ، فيقدر ما أشاد بذكر هذه الهيئة الدولية وما ساهمت به من أجل السلام العالمي ، بقدر ما استنكر موقفها وندد بها حينما عارضت العدوان البريطاني الفرنسي على قناة السويس .

وحينما عقد مؤتمر الاقطاب في جنيف في يوليو ١٩٥٥ سافر ماكميلان الى جنيف مع انطوني ايدن ورئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت . وهناك أتيت الفرصة أمام ماكميلان للاجتماع مع مولوتوف ، وزير خارجية الاتحاد السوفيتي ، وكذلك مع بولجانين رئيس الوفد السوفيتي ، وخورشوف . وقد جرى في هذه الاجتماعات من الانسجام بين ايدن وماكيلان من جهة ، والوفد السوفيتي من جهة أخرى . ما أدى الى توجيه الدعوة الى بولجانين وخورشوف لزيارة لندن .

أرواح السلام وأمنية عالم

في ٢٢ من ديسمبر ١٩٥٥ وقع الاختيار على ماكميلان ليشغل منصب وزير المالية . وكان أول ما فعله ماكميلان ، كوزير للمالية ، هو اتخاذ اجراءات جديدة لمواجهة النقص في ميزان المدفوعات البريطاني . كذلك وجد ماكميلان ان ميزانية الموظفين في ازدياد مطرد ، مع ان المحافظين حينما تقدموا للناخبين ببرنامجهم الانتخابي ، كان من بين هذا البرنامج تخفيض ميزانية الخدمة المدنية . وقد أعلن ماكميلان ان من بين الاجراءات التي سوف تتخذ لتحقيق هذا التخفيض ، اجراء تخفيض في امالة الخبز قدرها ١/٧ بنس على ارفع ، وهذا يوفر للميزانية ١٨ مليون جنيه

استرليني في السنة . كذلك كان من بين الاجراءات رفع اسعار التجزئة للبن وهذا يوفر للميزانية ٢٠ مليون جنيه استرليني في السنة .

لقد ظل ماكميلان وزيرا للمالية لمدة تبلغ نحو سنة ، أعد في خلالها مشروع ميزانية واحدة ، وفي أثناء مناقشة مشروع الميزانية تحدث ماكميلان عن اقتراح جديد ، وهو عقد قرض داخلي جديد يقوم به ذوو الدخل الصغير ، ويسحب عليه ياتصيب كل ثلاثة أشهر .

وفي اليوم التالي ظهرت الجرائد وعلى صفحاتها الاولى ، بالخط العريض ، العناوين الآتية : ميزانية ١٩٥٦ هي لأول مرة في التاريخ ، ميزانية ازباج السندات . الحكومة تغطي عجز الميزانية بالانصيب .

وقد كان لميزانية ماكميلان وقع سيئ في المجلس ، ولم يقتنع الاعضاء بالادلة التي قدمها دفاعا عن هذه الميزانية . ولما لم يجد مخرجا من المأزق ، الذي أوقعته فيه ميزانيته ، وقف يوجه حملة تشنيع ضد حكومة العمال السابقة وخاصة ضد جيتسكل ، محاولا بذلك توجيه انظار المجلس عنه في فشله .

وقبل أن نختتم هذا الفصل لابد أن نستجلى نقطة واحدة ، وهي ان الرأي العام كان يعلق آمالا كبيرة على أن ينجح ماكميلان في تخفيض اعباء المصروفات العامة ، وخاصة نفقات الدفاع . ولكن ماكميلان ، بصفته وزيرا للمالية ، انتهى خطابا في أثناء مادية اقامها مكتب الصحافة الخارجية ، وقد صرح في خطابه هذا بأن أي تخفيض في الميزانية ، وخصوصا ميزانية الدفاع ليس الا خيال حالم .

ولعل ماكميلان كان في موقفه هذا ، يتذكر جيدا ما حدث لسابقه قبله بخمسين عاما وقف اللورد راندولف تشرشل ، وزير المالية حينذاك ، معارضا ميزانية الدفاع ، واضطر تحت ضغط العاصمة التي هبت في وجهه من النواب ، أن يقدم استقالته .

كذلك كان من الاسباب التي أدت الى استقالة انيورين بيغان ، وهارولد ويلسون ، من حكومة العمال ، نفقات الدفاع .

ولكن ماكميلان كان حريصا على منصبه الوزاري ، فلا هو يريد أن يتخذ اجراء عاجلا مثلما اتخذ راندولف تشرشل ، ولا هو يريد أن يرغم على الاستقالة كما حدث لبيغان وويلسون .

مغامرة السويس

لما تولى انطوني ايدن رئاسة الوزارة البريطانية بعد ونستون تشرشل ، كان من النادر أن تجد بين الناس في ذلك الوقت من يتصور أن ايدن سوف يخلى منصبه بعد عامين وهو محطم مشوه الاسم يكاد يكون نسيا منسيا . ذلك أن ايدن كانت لديه كل المؤهلات التي تجعل منه رئيس وزراء محافظا من أنصف التقليدي المحبوب الذي افته بريطانيا ، فهو خريج اكسفورد ، ومن ضباط الحرس الملكي السابقين ، وهو جميل الظلمة ذو خبرة طويلة بوزارة الخارجية وأعمالها ، سواء قبل الحرب أو في خلالها في وزارة تشرشل . وكان يتمتع بمركز ممتاز في نظر الحكومات الأجنبية . ولم يكن متطرفا في نزعته العدوانية حيال الاتحاد السوفييتي ، وإذا فرض أن كان الطريق إلى تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتي هو الوسائل الدبلوماسية العادية فقد كان ايدن خير سياسي يمثل بريطانيا في هذا السبيل . والواقع أن ايدن أظهر في الأشهر الثمانية عشر الأولى بشائر توحى بأنه سوف يكون رئيس وزارة ناجحا يتمتع بسمعة طيبة في مجاس العموم وبين أعضاء حزب المحافظين .

ولكن أزمة السويس نزلت عليه كما تنزل صاعقة من السماء . حتى لقد أصبح في عزله وانزوائه يكره كلمة « السويس » وكل مايتصل بها من ذكريات .

إن ترجمته التي كتبها بنفسه لا تلقى الا ضوئا ضئيلا على العوامل التي حدثت به إلى اتخاذ قرار نهائي والاقدام على هذه المغامرة المهلكة ، التي أدى فشلها فيها إلى انهياره وسقوطه إلى الهاوية . لقد كنا نتخيل أن ايدن لديه من الفطنة والتفكير المتقدم ما يستطيع معه أن يدرك مقدما أن مثل هذه المغامرة لا تصلح للقرن العشرين . وكلما قرأنا عن الحوادث التي أدت إلى كارثة السويس ازددنا عجبا : كيف أمكن لوزارة بريطانية يتمثل في رجالها الذكاء ورجاحة العقل أن تتخذ قرارا بتحمل مسئولية التورط في شن هجوم عسكري على مصر ، بل يصبح عجبنا أشد من ذلك إذا فكرنا في الطريقة التي تم بها تنفيذ خطة الهجوم .

ولكن لننظر إلى الموضوع ، على اعتبار أنه حادث من حوادث الماضي . لقد كانت حادثة السويس مغامرة دولية يمتزج فيها الاجرام بالغباوة وهي من الناحية اسياسية اجراء لا سبيل إلى تبريره أو الدفاع عنه ، وهي من الناحية العسكرية عرضة للنقد المدمر ، ومن الناحية المالية والاقتصادية حماقة وجنون مطبق .

حينما بدأت أزمة السويس كان هارولد ماكملان وزيرا للمالية ، وأذن فهو الوزير البريطاني المسئول عن مالية الدولة . ولنتساءل الآن : أي كسب يرى وزير المالية أن بريطانيا سوف تجنيه من وراء الدخول في حرب مع مصر من أجل السويس ؟ .

إن المنطق السليم يوحي بأنه إذا كان هناك وزير بريطاني يرى من

واجبه الدعوة الى ضبط النفس والحرص والحزم وحسن التصرف في مثل هذا الموقف فهو وزير المالية . ولا ننسى ان ماكميلان كان قد اصدر كتابين عالج فيهما المسائل الاقتصادية ، وهو لم يكن بين المحافظين من الجناح اليميني الامبريالي مثل اميرى ، كما لم يكن في راي مجلس العموم من المتمسكين بمجد الامبراطورية الوائل، مثل الكابتن ووترهاوس الذي كان من زعماء « فريق السويس » الذي لا يتحمل التبعة ولا يركز اليه .

الحق يقال انه لا يزال هناك ستار يخفى وراءه ما حدث في الوزارة البريطانية من تطورات أدت الى أزمة السويس ، وان ماكميلان لم يساعد في كشف هذا الستار برفضه تشكيل لجنة تحقيق « منتقاة » لمعرفة ما حدث .

ولكن ، اين كان ماكميلان وقت اعداد الخطة العسكرية لحملة السويس ؟ وهل قدم أى تحذيرات أو اعتراضات على مثل هذا الاجراء ؟ من المؤكد انه كان هناك فرع في بعض دوائر الوزارة ، ودليل ذلك الاستقالة الجريئة التي قدمها السير ادوارد بويل السكرتير البرلماني لهذه الوزارة .

لم يكن هذا الرجل معروفا في دوائر الحكومة البريطانية بالاندفاع وعدم التروى ، وكان لا يزال شابا في بدء حياته السياسية ، ولهذه الاعتبارات لم يكن ليستقيل لولا ان رأى في الأمر من الخطر ما يدعو الى الاستقالة .

ومن المفيد هنا أن نذكر ما تلقاه ماكميلان من مشورة أهل الخبرة في وزارة الخزانة بشأن سياسة الحكومة البريطانية في مشكلة السويس .

المفهوم لدينا ان الحكومة كانت في ذلك الوقت متلهفة على اجراء بعض التخفيضات في المصروفات العامة ، وهذا ايضا ما طالب به ماكميلان في الخطاب الذي قدم به الميزانية الى مجلس العموم . ومادام الأمر كذلك فمن الغرابة بمكان الاقدام على غزو السويس الباهظ النفقات ، وخاصة أن الأمر يقتضى زيادة نفقات القوات المسلحة بأجمعها ، لأنه كان من المحتمل أن تؤدي هذه المغامرة الى اقحام بريطانيا في حرب مع دول أخرى .

حقيقة ان نصرا حاسما على « ناصر » قد يرفع من شأن الحكومة البريطانية ، ولكن على فرض أننا انتصرنا على « ناصر » فان معنى هذا إعادة احتلال منطقة القناة ، وقد يقترن بذلك احتلال قطاع كبير من مصر وفي هذا من الأعباء المالية مافيه . واذن فسواء انتصرنا على « ناصر » أو خسرنا المعركة ضده فسوف تتحمل الخزانة البريطانية عبئا ثقيلا في الحاليتين .

ويدعونا العجب أن نتساءل : ألم يفكر ماكميلان ، بصفته وزيرا للمالية ومسئولا عن الشؤون المالية للامة ، فيما يحتمل أن تؤدي اليه حرب السويس من عواقب ؟ ألم يكن من واجبه أن يحذر ايدن ووزارته من أن هذه المغامرة سوف تكون كارثة على بريطانيا ؟ لو أن ماكميلان ، بصفته وزيرا للمالية أشار ولو من طرف خفي ، الى أنه سوف يستقيل لوواصلت الحكومة البريطانية استعداداتها للهجوم المسلح على مصر ، لتوقف كل شيء .

ولكن ، أية مزايا اقتصادية يحتمل أن تحصل عليها بريطانيا من مهاجمة منطقة قناة السويس ؟ حقيقة أن جانباً كبيراً من البترول الذي نستهلكه يستورد من منطقة الشرق الأوسط عن طريق قناة السويس ، ومن هنا فإن بعض مؤيدي أيدن في مقامه برروا تأييدهم هذا بأن احتلال منطقة القناة سوف يضمن بقاء القناة مفتوحة لتدفق البترول على بريطانيا واستمرار السفن البريطانية في عبور القناة . ولكن ، ألم تلق الحكومة البريطانية بنظرها إلى الأمام ؟ ألم تفكر في احتمال وقوع حوادث تخريب تؤدي إلى اغراق بعض السفن في مجرى القناة ؟ وهل لم تدرك أن تدمير أنابيب البترول سوف يكون ذا أثر قوى في وقف تدفق البترول ؟ .

لعل المسؤولين عن القوات المسلحة البريطانية كانوا يرون أن مقامرة السويس سوف تكون فرصة طيبة لأحراز نصر مؤزر ، وهؤلاء لهم العذر باعتبارهم رجال العسكرية ، ولكن ماعذر وزير المالية ؟ وهو يعلم علماً تاماً أن النصر والهزيمة كلاهما باعظ النفقات ، وخاصة بعد ما أصبح واضحاً أن أمريكا تعارض التدخل العسكري وأن الاتحاد السوفيتي يستعد لاتخاذ إجراء عسكري ؟

لقد كان اتخاذ القرارات المتعلقة بمعركة السويس تتخذ في دائرة خاصة داخل وزارة أيدن ، وكان ماكملان عضواً في هذه الدائرة الخاصة ، وبدلاً من أن يعارض الحملة على السويس كان من مؤيديها .

وليتذكر القارئ ماقلناه من قبل وهو أن أيدن حينما اختار ماكملان وزيراً للمالية طلب منه أن يعمل على إجراء تخفيض في المصروفات ، وحذره من كل ما يؤدي إلى التضخم النقدي . و في شهر أبريل أرسل أيدن إلى ماكملان مذكرة أعرب فيها عن قلقه بسبب الحالة الاقتصادية المضطربة وأوضح له فيها الحاجة الشديدة إلى الاقتصاد . ولكن يبدو أن أيدن قد نسي كل شيء يتعلق بالموقف الاقتصادي في بريطانيا في تصميمه على إذلال « ناصر » ، ولكن لو أن وزير المالية كان أميناً حقاً على أداء وظيفته لذكر أيدن بأن موقف بريطانيا الاقتصادي لا يحتمل مقامرة في الخارج ، أن ماكملان ، بدلاً من ذلك أخذ يؤيد إجراءات أيدن في أثناء اجتماعات الدائرة الداخلية ، والشخص الوحيد الذي أشيع أنه يعارض اتجاهات أيدن ، هو بتلر .

يخبرنا أيدن في مذكراته أن ماكملان أدلى بتصريح ، بعد زيارته لأمريكا جاء فيه مايلي :

« أن واشنطن واثقة من أن ستة أشهر من الضغط الاقتصادي على ناصر كافية لتحقيق كل ما نطلبه بريطانيا » .

ويعاق أيدن على ذلك قائلا :

« ولكني غير متفائل بما تقوله واشنطن . وخاصة أنه قد مضى نحو شهرين على تأميم القناة وهيئة المنتفعين لازال أبعد ما تكون عن أن تمارس أى ضغط على ناصر ، سواء كان اقتصادياً أو غير اقتصادي » .

ويضئ ايدن في مذكراته قائلا : ان الوزارة بهيئتها الكاملة كانت تؤيده ، واستشهد على ذلك بأن أحد الوزراء البريطانيين ، في اثناء حديث له مع جون فوستر دالاس في السفارة الامريكية بلندن ، قال ان بريطانيا ستسوف تمضي في خططها العسكرية ، حتى لو أدى ذلك الى ان ترهن مالديها من تحف فنية في السوق الدولية .

ومما يؤسف له حقا أن السير انطوني ايدن قد جانب الصواب وكذب على التاريخ . فبأننا من بعدنا سوف يتساءلون : من هذا الوزير البريطاني الذي أبدى استعدادة لرهن التحف الفنية البريطانية للانفاق على مغامرة السويس ؟ .

لقد بعث المارشال بولجانين بمذكرة الى بريطانيا قال عنها ايدن انها صيغت في أسلوب « تهديدي » ولكن الولايات المتحدة من جانبها قدمت نصيححتها لبريطانيا .

وأصيب الجنيه الاسترليني بهزة عنيفة في السوق الدولية ١٠ الم يقدر ماكميلان احتمال وقوع هذا الخطر بصفته وزيرا للمالية ؟ .

لقد قرر ايدن أن نفقات اعداد الحملة بلغت ١٢ مليون جنيه استرليني وأن الاحتفاظ بقوة الحملة على استعداد للطوارئ ، ابتداء من منتصف سبتمبر ، يكلف مليونين كل شهر ، والعملية العسكرية نفسها قدر لها نحو مائة مليون استرليني، وهذا يعادل ١/١٦ من الميزانية العامة لبرنامج الدفاع . وقال أيضا أن خزانة الدولة مقتنعة بأن هذه الأرقام لا تثقل كاهلها الا اذا تعطلت الملاحة في القناة وظلت أنابيب البترول بدون اصلاح .

وكان على ماكميلان ، بصفته وزيرا للمالية ، أن يدخل في اعتباره كل الاحتمالات الممكنة التي قد تتعرض لها الخزانة ، وكان عليه أن يبلغ ذلك لزملائه ، وكان عليه أن يبلغهم أيضا أن المضاربة على الاسترليني اشتدت في أمريكا .

ولكن ماكميلان لم يفعل ذلك الا بعد فترة طويلة . فقد ابلغ مجلس العموم أن الضغط على الاسترليني اشتد منذ بداية نوفمبر ، وأن الاحتياطي البريطاني من الدولار هبط بمقدار ٥٧ مليونا في سبتمبر و ٨٤ مليونا في أكتوبر ، و ٢٧٩ مليونا في نوفمبر ، وهذا الرقم يعادل ١٥٪ من احتياطي بريطانيا الكلي من الذهب والدولار .

وفي شهر نوفمبر ساد الذعر دوائر الخزانة البريطانية ، حتى لقد أبلغ المسئولون فيها ماكميلان ، يوم ٦ نوفمبر ، أن هبوط الاسترليني قد زاد للدرجة أنه أصبح يساوي ٢٨٧ من الدولار فحسب ، أما المخزون للاسترليني فقد بدأ يتسرب الخوف الى نفوسهم مما سوف تكون عليه حال العملة فيما بعد . وقد أخذت الدوائر المالية الامريكية تمارس كل أنواع الضغط على الحكومة البريطانية ، واضطر ماكميلان الى أن يرسل برقية لواشنطن بتوسل اليها ان تمنح بريطانيا قرضا قدره ألف مليون دولار ، وذلك لانقاذ الاسترليني ، وردت أمريكا في اليوم نفسه بأنها على استعداد لمنح القرض ، بشرط أن توافق بريطانيا على وقف اطلاق النار حتى منتصف

الليل • وكان في هذا الرد فصل الخطاب ، فقد أرغمت الوزارة البريطانية على قبوله ، وبذلك انتهت أزمة السويس .

لا بد أن رئاسة الوزارة البريطانية ، في ١٠ شارع راونتنج شترت ، كانت مشهدا لحوادث مثيرة في هذه الأيام • ولو أتيح لتاريخ حياة ماكميلان أن تعرض على شاشة التلفزيون ، كما هو الحال مع تشرشل ، إذن لمشاهدنا مناظر كثيرة لما كان يجري في أثناء أزمة السويس ، وأشد هذه المناظر إثارة صورة ماكميلان ممسكا بسماعة التليفون ، وهو يتوسل إلى واشنطن أن تمنحه القرض لانقاذ الاسترليني •

لقد انقذ الاسترليني من الانهيار ، ولكن هذا ما كان ليحدث لو أن وزير المالية اتخذ موقفا حازما ، وأوقف السياسة التي كانت على وشك أن تؤدي بالاسترليني إلى الانهيار التام •

أما تكاليف حملة السويس فقد ترك تقديرها إلى وزير مالية آخر ، ففي ٣ من فبراير ١٩٥٩ ، وجه النائب آرثر لويس سؤالاً إلى أموري وزير المالية الجديد طالبا منه بيانا عن تكاليف حرب السويس ، على أن يدخل فيها ما فقدته بريطانيا من أسلحة وعتاد حربي في قاعدتها على القناة • كذلك طلب النائب بيانا عن الدخل ، الذي حصلت عليه بريطانيا في السنة السابقة لحرب السويس • نتيجة لحركة الصادرات والواردات بينها وبين مصر ، وما فقدته بريطانيا بسبب وقف الاتجار مع مصر •

ورد أموري قائلا : إن صافي ما أنفقته القوات المسلحة على الاجراءات الخاصة بالاستعداد لعمليات السويس قدر بنحو ٢٥ مليون جنيه استرليني ، وقدرت القاعدة البريطانية وما فيها من عتاد بنحو ٦٠ مليوناً • وهذه تقديرات تفتقر إلى كثير من الدقة ، كما تفتقر إلى الوضوح •

ولما أصبح ماكميلان رئيساً للوزراء سأل أحداهم أن يختار مؤرخاً لتدوين تاريخ حرب السويس ، ولكن ماكميلان رد قائلا : لا •

وهنا سأل جون ستراتشي : نحن ندرك إدراكاً تاماً أن رئيس الوزراء ينفر من فكرة اختيار مؤرخ ليصدر تاريخاً رسمياً لحرب السويس ، فهل رئيس الوزراء على استعداد للموافقة على أن ما سوف يكتبه ذلك المؤرخ من حقائق هو أن الحكومة البريطانية اتخذت سياسة خاطئة ، أدت إلى عمليات عسكرية خاطئة • • • موجهة نحو أهداف خاطئة ؟

وهنا رد ماكميلان بأن نشر رسائل الجنرال «كيتلي» فيه الكفاية •

كذلك رفض ماكميلان تشكيل لجنة مختصة بالتحقيق في عملية السويس كلها • وهنا سأل انيورين بيقان : ما الذي يخشاه رئيس الوزراء من تشكيل هذه اللجنة ؟ هل يخاف من نشر شيء يتعلق بشخصه ؟

فرد ماكميلان قائلا : كلا ياسيدي • سأفعل ذلك في الوقت المناسب (مقاطعة) - سوف تناف الفرصة لعرض هذه الأمور على الأمة في فترة أقرب مما يتصوره الأعضاء المحترمون •

وسأل الكولونيل كلدج : إن تشكيل لجنة تحقيق في العمليات

العسكرية الفاشلة أمر جرى عليه العرف في بريطانيا . ومن أمثلة ذلك ما جرى في حملة الدردنيل ، وحملة العراق . ومن حق الرأي العام البريطاني أن يعرف ماذا كان حكامه لا يزالون يفخرون بما فعلوه في السويس .

لقد صرح رئيس الوزراء بأن الشعب سوف يكون حكما في هذا الموضوع . وهذا كلام لا عيب فيه ، ولكننا في بلد ديمقراطي ، وكيف يتاح للشعب إذن أن يحكم إذا لم تقدم إليه الحقائق ؟ أما إذا صدر تفسير الحقائق من جانب واحد فقط فهذا ليس عملا ديمقراطيا .

نحن أمام حكومة تفخر بما فعلته في السويس ، وتثق بأنها تركت في السويس صفحة بيضاء ناصعة . وإذا كان رئيس الوزراء ووزير خارجيته حقا على ثقة من ثبات مركزهما فعليهما اثبات ذلك . أما طريق الالتماس فهو أن يتقدموا إلى لجنة تحقيق مختارة من بين أعضاء مجلس العموم وما داموا واثقين من أنفسهم فليس هناك ما يدعوهم إلى الخوف من المثل أمام اللجنة إذ أن الوثائق السرية سوف تكون ، في هذه الحالة في جانبهم .

ووقف أنيورين بيفان : فقال إن المعارضة لا تبني مطالبها بتشكيل لجنة تحقيق برلمانية على أساس ما طلبته الصحافة ، ولكننا فعلنا ذلك بعد الحقائق التي ظهرت فجأة في هذه الليلة .

فقد ألقى البريجادير « هيد » وزير الحرب السابق خطابا اتهم فيه زملاءه السابقين بأنهم تعمدوا اعداد خطة كانوا يعلمون أنها عملية انتحارية ثم فروا قبل تنفيذها .

وقال « هيد » إن عملية السويس قد وضعت ، منذ البداية ، في مآزق . فمثل يوم خروجنا من مصر أصبح أقرب مراكزنا القوية لشرق البحر الأبيض هو ماطلة ، لا قبرص ، وذلك لأسباب مالية وهندسية . واتخاذ ماطلة قاعدة أساسية وضع كثيرا من العراقيين في طريق الحملة .

وهنا سأله أنيورين بيفان : ألم يكن ذلك معروفا لديكم من قبل ؟

ورد هيد قائلا : لقد كنا جميعا نعرف ذلك من غير شك ، وكان من واجب كل من تعرض لاعداد العمليات العسكرية أن يتركه أيضا . ومنع ذلك فمبلغ علمي أنه لم يحاول أحد اخفاء هذه الحقيقة .

فوقف جون سترانثي ليقول : ألا يعلم النائب المحترم انه بالاسباب في الكلام عما سماه المآزق العسكري يثبت أن الموقف كان من الخطورة على درجة لا بد أن تؤدي إلى تلك الكارثة المفجعة التي انتهت اليها ، وأنه بروديه يؤيد موقفنا ضد حماقة الحكومة تأييدا تاما ؟ وأخيرا فلا شك في أن ماكميلان يتحمل نصيبه في مسئولية كارثة السويس . ولكن مهما تكن العواقب العسكرية والاقتصادية والمالية لحرب السويس فإن نتيجتها السياسية هي استقالة ايدن من رئاسة الوزارة البريطانية .

وبعد استقالة ايدن في يناير ١٩٥٧ كان الاختيار بين ماكميلان

وبتلر . ولما كان بتلر قد ظهر بمظهر المعادي لمغامرة السويس ، أو على الأقل كان قاترا في تأييدها في حين كان ماكميلان من مؤيديها ، فقد فضل ذوو المقاعد الخلفية من الأعضاء المحافظين ، ماكميلان على بتلر ، وهكذا أصبح رئيسا للوزارة .

بتلر أو ماكميلان

قليل من الناس من كان يتصور عام ١٩٥٦ أن هارولد ماكميلان سوف يدعى الى قصر بكنجهام عام ١٩٥٧ ، ويكلف بتأليف الوزارة ، وقبل أزمة السويس قل بين رجال البرلمان من كان يرى أن ماكميلان سوف يصبح رئيس الوزراء التالي بعد ايدن . ولو أجرى رهان عما اذا كان ماكميلان أو بتلر أقرب الى تولى الرياسة لكانت النتيجة واحدا في صف ماكميلان مقابل عشرة في صف بتلر . ولقد كتب فرانسيس بويد ، مراسل صحيفة « الجارديان » الالمى ، قبل ذلك يوم يقول :
لاشك لدى في أنه لو خلا منصب الزعامة في حزب المحافظين في المستقبل القريب فلن يشغله الا بتلر .

والواقع ان هذا كان رأى أعضاء البرلمان المحافظين في ذلك الوقت حتى لقد أظهر الكثيرون منهم دهشهم مع بقية الرأى السام حينما علموا أن الاختيار وقع على ماكميلان ليشغل منصب رئاسة الوزارة . فلم يكن ماكميلان زعيما للمحافظين ، ولم يتم انتخابه بطريقة ديمقراطية سليمة ، أى أن هيئة المحافظين البرلمانية لم تقترح على اختياره للمنصب ولو أجرى مثل هذا الاقتراح ، كما هى العادة حين اختيار زعيم لحزب العمال ، فلا شك في أن بتلر كان هو الذى سيفوز بها .

هكذا تم اختيار ماكميلان لرئاسة الوزارة البريطانية من وراء ستار دون الرجوع الى الهيئة البرلمانية لحزب المحافظين .

لقد كان انهيار ايدن مفاجئا ، ولما حدث ، افترض الجميع ان خلفه هو بتلر ، ويبدو أن هذا هو ماكان بتلر نفسه يفترضه ، ففي أثناء غياب ايدن في الخارج كان يرأس اجتماعات الوزارة ، وهو أيضا زعيم المحافظين في مجلس العموم كما أنه وزير الداخلية .

ولنتساءل الآن : لماذا لم يدع بتلر الى قصر بكنجهام لتسند اليه رئاسة الوزارة ؟

بخبرنا السير تشارلس تيرى في كتابه « الملكية البريطانية الحديثة » ان الملكة لم تلق أية عظة امامه في نقل الرياسة من ايدن الى ماكميلان فقد استشارت اللورد سالسبورى ، وولستون تشيريل ، وكذلك استشارت رئيس الوزارة السابق ايدن ، والمعروف انه كان يعيل الى ماكميلان ، وبهذه الاستشارات تكون الملكة قد تمتعت مع التقاليد

الدستورية باختيارها الرجل الذى كان نه اكبر وزن فى نظر مؤيدى الحكومة ، وأذن فطريقها سليم لا مطمئن عليه .

ولا يخبرنا ايدن فى مذكراته عن اوصى به ، وعلى فرض انه اوصى بماكميلان فلماذا استشير سالسبورى وتشرشل فيما بعد ؟

ولكن اذا كانت الملكة قد استشارت سالسبورى ، بصفته رئيسا لمجلس اللوردات ، فلماذا لم تستشر رئيس مجلس العموم ؟

وحينما استقال ايدن كتب المعلق السياسى لجريدة « التايمس » فى عدد ١٠ يناير ١٩٥٧ يقول ان بتلر لديه كل المؤهلات التى تجعله اول مرشح لرياسة الوزارة ، ولكن يبدو ان الجناح الايمن لحزب المحافظين ، وهو جناح قوى ، لن يركيه اذ أنه يفضل عليه هارولد ماكميلان .

وكتب المعلق السياسى لصحيفة « المانشستر جارديان » يقول ان هناك عنصرا قويا بين المحافظين فى مجلس العموم ، يوجه اللوم الى المستر بتلر لمعارضته لانطوى ايدن بسبب سياسته العسكرية فى ازمة السويس . ولكن لانسى ان مضامرة السويس كغتنا نفقات باهظة لم تكن نستطيع تحملها ، وأدت الى تصدع فى العلاقات بين بريطانيا وأمريكا واضرت بالعلاقات بيننا وبين بلاد الكومنولث . وعلى العموم فهناك عناصر قوية النفوذ فى حزب المحافظين تصمم على ابعاد بتلر عن رياسة الوزارة . وهذه العناصر هى التى أطلق عليها اسم « فريق السويس » ومعهم من ينصرهم من بقية المحافظين . وعلى الرغم من ان بتلر يلقى تأييدا حزيا كبيرا فانه يبدو ان معارضيهم من المحافظين على استعداد لافتارة التناهب اذا ما أصبح رئيسا للوزارة .

ومن ناحية أخرى ، اذا تم اختيار ماكميلان لرياسة الوزارة فان الجناح اليسارى من المحافظين ، وكذلك جماعة المعتدلين سوف لا يثيرون فى وجهه التناهب لان الوحدة الحزبية أهم لديهم من اى اعتبار آخر .

والذى نستخلصه من اقوال الصحف ، ومما يدور بين المحافظين فى اجتماعاتهم الخاصة . ان السبب الاساسى فى عدم اختيار بتلر لرياسة الوزارة هو موقفه المعارض لايدن فى ازمة السويس . فقد كتب اللورد لامبتون مقالا فى صحيفة « ايفنج ستاندارد » قال فيه : لاشك فى ان بتلر لم يبد أى ارتياح لخطة السويس فى جملتها وتفصيلها ، وانه أعرب عن رآيه فى هذا الموضوع صراحة ولعله فى ذلك لم يلزم جانب الحكمة . حقيقة انه حينما بلغت الازمة غايتها لم يحاول بتلر ان يجمع الرأى العام حول ايدن ، ولكن ما ان بدأ ايدن العمل الجدى فى تنفيذ خطته حتى وجد بتلر بجانبه يسائده ومؤيده .

هذا هو التلخيص الحقيقى لموقف بتلر ، ولكن الغالبية العظمى من المحافظين كانوا ينظرون الى بتلر نظرة ريبة فى اثناء ازمة السويس ، وبذلك هبطت سمعته بينهم الى حد أصبح من المحال معه ترشيحه لرياسة الوزارة . انها كانت مؤامرة دينية على بتلر ، ولقد بعثت فى نفسى الاشمزاز لدرجة اننى فكرت فى اعتزال الحياة السياسية .

سيد القلعة

لقد اثبتت الحوادث خطأ أولئك الذين ظنوا ، بعد معركة السويس ، ان حكومة المحافظين لن تهمر طويلا ، وأن ماكميلان سوف يخلي مكانه ليتبر . فما ان تولى ماكميلان منصبه حتى اخذ يتجه بسياسته نحو مجلس العموم ويحاول التقارب من المعارضة .

لقد جاء بعد تشرشل وايدن ولكنه لم يكن شبيها لاحدهما ، فلم تكن لديه تلك الجاذبية الشخصية التي كانت من خصائص ايدن ، ولكن معلوماته عما يجري في البلاد كانت اوسع بكثير من معلومات ايدن . والواقع ان ايدن لم يكن رئيس وزراء بالمعنى المفهوم عن رؤساء الوزارة في بريطانيا ، وهو في الحقيقة لم يخرج عن أن يكون وزير خارجية خلع عليه كساء من المجد . بل قل أنه كان اصلح للسلك الدبلوماسي . ولو ان بريطانيا عينته سفيرا لها في الخارج لكأنت قد احسنت الاختيار .

اما تشرشل فهو شخصية فذة فريدة في نوعها . كان ذا قدرة فائقة على توجيه المناقشات البرلمانية ، وهو حاضر البديهة لاذع التندر ، فاذا وقف على منبر الخطابة فهو سيد الموقف .

اما صاحبنا ماكميلان فلم يمتلك رقة ايدن وظرفه ، ولا حيوية تشرشل ومرجه ، ولكن ادراكه للامور واسع ، وهو لا يتحدث في اي امر الا بعد دراسة عميقة . وقد اكتسب سمعة طيبة بين اعضاء البرلمان حينما علموا أنه يؤيد زيادة رواتبهم . ولم يكتف ماكميلان بما حققه من نجاح ، بل ان إحدى دور الاعلان الكبرى في لندن تولت نشر الدعاية له استعدادا للانتخابات العامة القادمة .

اما متاعبه في الوزارة فقد بدأت بمشكلة قبرص ، فقد كان هناك خلاف بين الوزراء حول القرار الخاص باطلاق سراح الاسقف مكاربوس واعادته من منفاه في سيشل ، ليتولى المفاوضات مع الحكومة البريطانية بشأن مستقبل قبرص . . كانت قبرص قد اصبحت شوكة تقض مضجع بريطانيا ، فهناك النفقات الباهظة التي تثقل كاهل الخزنة البريطانية ، وهناك سوء التفاهم الذي سببته هذه المشكلة بين بريطانيا واليونان ، وهناك جماعة « ايوكا » وما تسببه من خسائر في الأرواح والاموال للقوات البريطانية في الجزيرة .

وما ان مضت ثلاثة اشهر على تولى ماكميلان منصب رئاسة الوزارة حتى استقال اللورد سالسبوري من رئاسة مجلس اللوردات ومن زعامة المحافظين في هذا المجلس ، احتجاجا على اقرار الذي اتخذته وزارة ماكميلان لاطلاق سراح مكاربوس . لقد كان القرار الذي اتخذه ماكميلان قرارا حكيما وعلى الرغم من ذلك فان معارضة سالسبوري له اوجدت لماكيلان في شخصه خصما عنيدا ، عاد بهاجمه مرة أخرى بشأن سياسته في جنوب افريقيا . وقد استطاع ماكميلان ان يتغلب على خصمه بشعبيته ، فعزل الرغم من نفوذ سالسبوري القوي في مجلس

اللوردات ، باعتباره ممثلا للمعصر الأرستقراطي العتيق ، فلم يكن يحظى ، مثل ماكميلان ، بأى نفوذ بين الجماهير .

أما الخطر الحقيقي الذى واجه ماكميلان فقد جاء فى العام التالى ، فى يناير ١٩٥٨ استقال بيتر ثورنيكروفت ، وزير المالية ، ومعهم وزيران آخرون هما اينوك باول ونيجل بيرش . ولكن ماكميلان استطاع ايضا أن يتخطى هذه العقبة ويكتسب ثقة المحافظين ، وخاصة أنه ، بعد فترة ، أعاد ثورنيكروفت وزييرا بلطيران وأعاد زميله اينوك باول وزييرا للصحة .

وفى الوقت الذى قدم فيه ثورنيكروفت استقالته قام ماكميلان برحلته المشهورة لزيارة بلاد الكومنولث ، فزار الهند وباكستان ونيوزيلنده وأستراليا . وكان يلقى ترحيبا حارا كلما زار بلدا باقتراحه الذى يقضى بتوقيع ميثاق عدم اعتداء بين حلف الاطلنطي وحلف وارسو لتخفيف حدة الموقف الدولى ، وأعرب الجميع عن أملهم فى أن يخرج مثل هذا الاقتراح الى حيز العمل .

وفى أثناء رحلة ماكميلان الى بلاد الكومنولث جرت مناقشة فى مجلس العموم حول موضوع استقالة ثورنيكروفت ، ووقف ثورنيكروفت ليشرح وجهة نظره للمجلس فقال : أن رئيس الوزارة ، وقد كان وزيرا للمالية من قبل ، يعلم تمام العلم أننا فى أشد الحاجة الى الاقتصاد فى المصروفات ، ولكن الحكومة أخذت ، فى الفترة الأخيرة ، تتجه نحو تحقيق هدفين : أما الهدف الأول فهو أن نصبح دولة نووية نجسارى الدول النووية الكبرى ، وهى أمريكا والاتحاد السوفيتى ، فى القذائف الموجهة وفى القذائف المضادة وفى الأسلحة التقليدية ، وأن يكون لدينا ماينفى من قوات الدفاع فى الشرق الاقصى وفى الشرق الاوسط وفى الاطلنطي .

فالذا انتقلنا الى الهدف الثانى نجد الحكومة تسعى الى اقاعة مايسمى بدولة الرفاهية ، او حكومة الخدمات الاجتماعية ، وأنها تريد من وراء ذلك أن ترفع مستوى المعيشة فى بريطانيا الى مثل مستوى المعيشة فى الولايات المتحدة بل أعلى منه . فكيف تريد الحكومة أن تحمل خزانة الدولة كل هذه الأعباء فى وقت واحد ، بل تسعى فى الوقت نفسه الى زيادة المصروفات فى باب الاجور والمربحات الخاصة بالخدمة المدنية ؟ أن الحكومة تحاول انشاء دولة الحرب ودولة الرفاهية والسلام فى وقت واحد ، وهذا محال .

مضى ثورنيكروفت يقول : منذ اثنتى عشرة سنة ونحن ننتقل من أزمة مالية الى أخرى ، فمرة تكون أزممتنا فى ميزان المدلوعات ، ومرة أخرى فى المحافظة على مركز الإسترليني فى سوق النقد الدولية ، ولقد هبطت قدرة الإسترليني المراتبة من عشرين نلنا الى اثنتى عشر شأنه ، وليست هذه صورة الأمة التى تريد أن نبشها ونقيم فيها الرخاء ، ولكنها صورة لامة تنكص على عقبيها وتراجع عن تحمل نصيبها من المسئولية . وأخيرا فليس هذا هو الطريق الى المجد ولكنه طريق الدمار .

ووقف ، بعد ثورنيكروفت ه هارولد وينسون ، ليتحدث باسم المعارضة ، فقال ان ماكميلان ، رئيس وزراء بريطانيا الذي يتحدث عن الخدمات الاجتماعية ، قرر يوم ٢٥ من اكتوبر ١٩٥٦ ، أى قبل غزو السويس بخمسة أيام ، اجراء تخفيض في معاشات المسنين وذوى الأمراض المزمنة العاجزين عن الكسب ، وقد حصل من ذلك على وفر قدره خمسة ملايين جنيه استرليني فقط ، والنواب المخترمون ادرى بما أنفقه على مقاومة السويس .

ولم تكن المشكلة مقتصرة على تلك الدائرة الضيقة ، وهى زيادة المصروفات أو تخفيضها ، بل كانت أعمق من ذلك بكثير ، فقد كانت سياسة ماكميلان الاقتصادية تتجه الى وضع اقتصاديات بريطانيا بين أيدي الاحتكارات الكبرى وكبار القاولين والمضاربين فى حى السبتي (حى المال ورجال الأعمال) وفى سوق الأوراق المالية .

ولكن ما اثر هذا كله على مركز ماكميلان ؟

لقد كان كل ما ذكر ضعيف الاثر ه فالحافظون بأغلبتهم البرلمانية وقفوا وراءه صفا واحدا لميلهم ان الانتخابات العامة على الإياب ، وهم يريدونه أن يخوض بهم المعركة الانتخابية وأن يخرجوا منها ظافرين .

استراتيجية الرابع النوى

كان اختيار ماكميلان لدنكان ساندز وزيرا للدفاع فى وزارته ذا أهمية خاصة بالنسبة لرئيس الوزراء ، فماكميلان كان يعلم علما جيدا أن ساندز هو الوزير الذى ينفذ بلا تردد أية سياسة تملئ عليه أو أى واجب يكف به . وقدر ماكميلان ان الموقف يحتاج الى شخصية سياسية خشنه عنيفة لتنفيذ البرنامج الدفاعى الذى كان يجول بذهنه

وبعد شهر من تولى ماكميلان للحكم قدمت المعارضة اقتراحا بلوم الوزارة . وأعربت فى هذا الاقتراح عن استنفا لأنه على الرغم من أنه قد أنفق على الدفاع منذ عام ١٩٥١ مايزيد على ٧٥٠٠ مليون جنيه استرليني فقد أكدت الحوادث الأخيرة ان هذه الأموال بددت فيما لا يعود على الدفاع البريطانى بفائدة حقيقية . وطالبت المعارضة بأعداد برنامج دفاعى جديد يحقق درجة عالية من الكفاية ، ويؤدى فى الوقت نفسه الى تخفيض كبير فى نفقات الدفاع وإلى إلغاء الخدمة الإلزامية

وحينما قدم جورج براون اقتراح المعارضة ذكر المجلس بالخطاب الذى كان ماكميلان قد القاه فى ١٦ مايو من العام السابق فى المادية التى أقيمت فى نادى المراسلين الأجانب حينما كان وزيرا المالية .

وكان ماكميلان قد تحدث فى خطابه هذا عن امكان اجراء تخفيضات كبيرة فى ميزانية الدفاع ، ودفعه القلق الى تقديم تقديرات

رقمية. تبعت على الاغراء ، وأشار جورج براون الى أن ماكميلان حين الحديث عن التخفيضات ذكر الرقم ٧٠٠ مليون جنيه استرليني مالا يقل عن خمس مرات أو ست وليس لذلك من تفسير إلا أن وزير المالية حينذاك (يقصد ماكميلان) كان يريد الشعب البريطاني على أن يفهم أن السبعمئة مليون هو رقم التخفيض المحتمل .

وهنا وقف ماكميلان للرد على جورج براون فقال « ان العضو المحترم قد خلق أسطورة من خطايي السابق . فما كنت أقصده في نادى المراسلين الاجانب هو أن بريطانيا كانت تتحمل عبئا دفاعيا ثقيلا بثقل كاهل اقتصادها ، وأن نصيب بريطانيا من نفقات التسليح الغربى يزيد كثيرا على نفقات كثير من شركائها في حلف الدفاع الغربى ، ولكن استطاعتها تحمل هذا العبء الفادح دليل على ثبات مركزها الاقتصادى واذن فالعضو المحترم اساء تفسير خطايي ، وقد فعل ذلك عن قصد »

ونحن لا نرى في رد ماكميلان مايقنع ، فمن المؤكد انه ذكر رقم « ٧٠٠ مليون » كأساس للتخفيض ، في نادى المراسلين الاجانب ، وهذا ليس بالمكان الذى يجوز فيه لوزير المالية البريطانية أن يعبث بالمعبارات وخاصة انه يتحدث عن ميزانية بلاده .

ولندع هذا جانباً ثم لنسال : ماذا كانت تقديراته للتخفيضات الممكنة في ميزانية الدفاع ؟ وماذا كانت خطته لاجراء هذه التخفيضات ؟

لقد رد دكتور ساندنيز على هذا باسم الحكومة ، وقدم بيانات تضمنها فيما بعد كتاب ابيض عن هذا الموضوع .

اعترف ساندنيز في بيانه بأن بريطانيا قد باغت نقطة تحول في وسائلها الدفاعية ، وأنه لابد من اتخاذ قرارات حاسمة كبرى في هذا الشأن ..

ومضى ساندنيز يقول ان المسؤولية الاساسية التى تضطلع بها الحكومة هي حماية ارواح الشعب والدفاع عن استقلال البلاد ، ولكن الحكومة البريطانية في قيامها بتحمل هذه المسؤولية الكبرى تواجه تقدما هائلا في تطوير الاسلحة ذات التدمير الشامل .

وهنا اشار ساندنيز الى خطأ الفكرة القائلة بأن ميزانية الدفاع يمكن تخفيضها الى النصف في يوم وليلة ، وأن دافع الضرائب البريطانى سوف يعنى من عدة شلنات من الضريبة في بضعة أسابيع ، فهذا في نظره من باب التمنيات . والمهم ان التخفيض سوف يتم يوما ما .

وفي شهر ابريل قدم ساندنيز لمجلس العموم ماسمى حينذاك بالكتاب الابيض التاريخى ، وكان هذا يتضمن تفصيلات عن القرارات الكبرى التى اتخذتها الحكومة والتى سبق أن وصفها بأنها « نقطة التحول » .

وقد جاء في الفقرة الاولى من الكتاب الابيض أن الوقت قد حان لاعادة النظر في اهيكل العام لبرنامج الدفاع ، لا أن يقتصر الامر على

حجبه فقط ، فالخطر الشيوعي باق ولكن طبيعته تغيرت وأصبح من الواضح من الناحيتين العسكرية والاقتصادية انه من الضروري إعادة النظر في المشكلة والبحث عن حل جديد لها .

وأكد ساندروز أن نفوذ بريطانيا في العالم يتوقف أولا وقبل كل شيء على سلامة اقتصادها ومدى نجاحها في تجارة الصادر ، فبدون هذين العنصرين لن تستطيع بريطانيا امداد مايلزمها من وسائل دفاعية . ومن هنا يتبين أن من مصلحة الدفاع أن تسيّر النفقات العسكرية جنباً الى جنب مع الحاجة الى الاحتفاظ بسلامة مالية البلاد واقتصادها .

ولقد كانت ميزانية الدفاع في السنوات الخمس الماضية تمتص ١٠٪ من اجمالي الدخل القومي في بريطانيا وإن نحو ٧٪ من الطبقة العاملة البريطانية يعملون إما في القوات المسلحة وإما في نواح لها ارتباط بهذه القوات ، وإن ١٢١/٢٪ من انتاج الصناعات المعدنية التي تعتمد عليها تجارة الصادر في بريطانيا تخصص للدفاع ، وهناك بجانب ذلك عدد أكثر مما ينبغي من اعضاء المتنازير والمهندسين يعملون في خدمة الدفاع ، وأخيراً فإن احتفاظ بريطانيا بقوات كبيرة في الخارج يرهق ميزانيتها ويؤثر تأثيراً سيئاً على ميزان المدفوعات .

ومن هنا يتبين لنا أن الكتاب الأبيض كان ذا دلالة كبرى ، إذ تعرض للذكر عامل من العوامل الأساسية في المصاعب الاقتصادية التي تواجهها بريطانيا ، كما تضمن استنكار السياسة الدفاعية التي اتبعتها كل حكومة بريطانية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وخاصة الحكومات التي تولت منذ عام ١٩٥١ . كذلك كان الكتاب الأبيض يتضمن ادانة اوزراء المسؤولين عن اعداد ميزانية الدفاع في هذه الفترة ، ولقد كان ماكملان وزيراً في ثلاث وزارات رئيسية في السنوات السابقة وهي الدفاع والخارجية والمالية ، ومن هنا تثبت ادانته ، فهو الذي دعا الى الموافقة على ميزانية الدفاع حينما ألقى خطابه ، بصفته وزيراً للدفاع ، عام ١٩٥٥ ، وهو الذي أعتمد هذه الميزانية عام ١٩٥٦ . بصفته وزيراً للمالية ، وبجانب ذلك فهو مسئول عن السياسة الخارجية التي رسمت الخطوط انعريضة لهذه السياسة الدفاعية حينما كان وزيراً للخارجية .

وتعرض الكتاب الأبيض للحديث عن الوداع النووي ، فقال ان من دواعي الصراحة الاعتراف بأنه لا توجد في الوقت الحاضر وسيلة كافية لحماية الشعب البريطاني من عواقب هجوم بالإساحة النووية . وعلى الرغم من أن مقالنا تستطيع ، في مثل هذه الحالة ، أن تنزل بقاذفات العدو خسائر فادحة ، فلا بد من أن تتسرب بعض هذه القاذفات الى المجال الجوي البريطاني ، وتعمل عملها التدميري ، وعلى فرض أن هذه القاذفات كانت « دسنة » واحدة فقط فهي تستطيع ، بما تحمله من قنابل تبلغ قوتها ملايين الاطنان من المواد المتفجرة ، أن تحدث قدراً هائلاً من التدمير . والعالم الحر الآن يعتمد أساساً ، في حمايته ، على ما تملكه الولايات المتحدة من قوة نووية .

وعلى الرغم من أن بريطانيا لا تستطيع أن تساهم في هذا المضمار إلا في حدود متواضعة ، فهناك نسبة كبيرة من الموافقة على أن بريطانيا يجب أن تمتلك قدرا كافيا من الرادع النووي على أن يكون ملكا خاصا لها . ونحن الآن ننتج القنابل الذرية ، ولدى القوات الجوية البريطانية مقدار كبير منها ، كذلك نحن بسبيل إنتاج القنبلة الهيدروجينية التي تبلغ قوتها ملايين الاطنان ، وبعد قليل سوف نجرى تجاربنا عليها ثم نبدا في انتاجها وتخزينها .

ووردت فقرة في الكتاب الابيض عنوانها : « اندفاع عن الرادع النووي » .

وجاء في هذه الفقرة أن الدفاع عن قواعد القاذفات البريطانية أصبح له المقام الاول قبل اعداد الدفاع المدني .

وقد ظل مجلس العموم يومين في مناقشة سياسة الدفاع ، التي تضمنها الكتاب الابيض ، ويستخلص من خطاب ساندز : باعتباره وزير الدفاع ، أن هذه السياسة تركز على قاعدتين : الاولى انه من المحال الدفاع عن البلاد ضد هجوم بالقنابل الهيدروجينية ، والاخرى أن بريطانيا - سواء رضيت أو لم ترض - لا تستطيع أن تواصل تخصيص جانب كبير من مواردها ، وخاصة مواردها في القوى البشرية ، لشؤون الدفاع .

كذلك تبين من خطابه ومن خطاب ماكميلان أن التركيز على انتاج الاسلحة النووية يقتضي تخفيض الاتفاق على الجيش والبحرية ، وأن التجنيد الإجباري يجب أن يوقف . وقال ساندز انه سوف يتم تسريح ٣٠٠ ألف جندي ، وعدد كبير غيرهم من المدنيين الذين يعملون في خدمة القوات المسلحة وخاصة منهم العلماء ، وهذا سوف يوفر لدافع الضرائب قدرا كبيرا من المال .

وقد تعرضت هذه السياسة ، التي شرحها ساندز ، للنقد الشديد من جهات متعددة ، فبعضهم رأى استبعاد القنبلة الهيدروجينية من برنامج اندفاع البريطاني استبعادا نهائيا ، والبعض الآخر رأى عدم تخفيض الاسلحة التقليدية بل مضاعفة الاتفاق عليها مع تخفيض ماينفق على الاسلحة النووية .

وقف ماكميلان ليلقي خطابه ، فايد ماجساء في الكتاب الابيض بشأن سياسة الدفاع قائلا انها سياسة تتسم ببعد النظر كما انها انشائية . وأكد ماكميلان ان الموضوع كله يدور حول ما اذا كانت بريطانيا تتخذ قرارا بشأن استخدام الاسلحة النووية أو رفضها وقال ان تخفيض الاسلحة التقليدية مستحيل اذا لم تستعد بريطانيا بالرادع النووي ، لا بل انها اذا اعتمدت اعتمادا كاملا على الاسلحة التقليدية فلا بد من اعداد قوات جديدة كبيرة ، وفي هذه الحالة فلا أمل للحكومة في الحصول على المدد الكافي من المجندين ، على قاعدة التجنيد الاختياري ، أي ان فكرة إلغاء التجنيد الإجباري تلقى ظهريا .

وخلصة خطاب ماكميلان ان انهاء التجنيد الاجبارى وتخفيض القوات المسلحة التقليدية لا يتحققان الا بانشاء قوة نووية رادعة .

وقد تقدمت المعارضة الصمالية بتعديل يقتضى البدء بالعمل فوراً فى اعداد مقترحات انشائية لالغاء التجارب الهيدروجينية ، ورد ماكميلان على ذلك مغالطاً ، فقال ان « تأجيل » التجارب الهيدروجينية معناه انها لن تظهر مرة أخرى الى عالم الوجود .

غير ان هيو جيتسكيل وقف على الفور ليهين لمجلس العموم ان رئيس الوزراء يفسر التعديل الممالى تفسيراً خاطئاً ، وان وجهة نظر حزب العمال الصريحة هى الغاء التجارب الهيدروجينية الفناء نهائياً وليس تأجيلها ، على ان يكون مفهوماً انه فى الفترة التى تجرى فيها المفاوضات لالغاء هذه التجارب نهائياً ، توقف بريطانيا تجاربها مؤقتاً ، فاذا لم يتم الاتفاق الدولى على الغاء التجارب ، فليس هناك ما يحول دون استئناف بريطانيا لتجاربها .

وهنا أبدى ماكميلان تصميمه على عدم وقف التجارب الهيدروجينية قائلاً : انه الى ان يتحقق نزع سلاح شامل يضم الاسلحة النووية والتقليدية ، فلا بد لبريطانيا من الاعتماد على الرادع النووى ، والا فانه ليس امامها من سبيل غير الاستسلام للخصم .

ومضى ماكميلان يقول : ليس هناك طريق وسط بين الرادع النووى والاستسلام ، واعتقد ان كثيراً من المواطنين يوافقونى على ان قبول الرادع النووى خير من تعريض حريتنا الدينية والمدنية للخطر .

وكانت هذه هى الصارة ، التى يتخذها ماكميلان فى دفاعه فى كل مناسبة وفى كل مازق . واصبحت أساساً لسياسته الخارجية والدفاعية حينما أصبح رئيساً للوزراء ، انها سياسة تؤدى الى الفناء ، ولا ندرى مدى مأسوف يكون لها من اثر مهلك لبريطانيا فى المستقبل .

لقد اعترف ماكميلان فى اثناء خطابه بانه حدث انهيار خطير فى العلاقات بين بريطانيا وأمريكا بعد مفامرة السويس ، وانه بعد ان تولى رئاسة الوزارة البريطانية تلقى دموعاً من ايزنهاور لزيارة أمريكا وفقدت معها عدة اجتماعات فى برمودا فى الفترة من ٢١ الى ٢٤ مارس ١٩٥٧ . وصدر بيان مشترك يقول ان ماكميلان وايزنهاور راضيان عن النتائج التى أسفرت عنها اجتماعات برمودا .

وقد أجرى مجلس العموم مناقشة حامية حول موضوع اجتماعات برمودا ، قال ماكميلان فى اثنائها ان اجتماعات برمودا لم تكن « للبكاء على اللبن المسكوب » اما من الذى سكب اللبن فهذا مالم يتعرض له ماكميلان . كذلك تجنب الخوض فى أى حديث عما قرره ايمرى بشأن السبب الذى حدا بالسلاح البحرى الأمريكى لتوجيه تهديد الى بريطانيا وقت مفامرة السويس ، وكذلك بشأن السبب الذى حدا بالحكومة الأمريكية لاتخاذ قرارات مالية حاسمة مقترنة بدموع بريطانيا الى وقف مفامراتها فى السويس .

نقد أعلن ماكميلان أن المحادثات دارت في برمودا حول ما سوف يتبع في المستقبل ، وكان اهتمام ايزنهاور موجهاً الى نقطة واحدة، وهي ما الذي يحتمل أن يحدث في بريطانيا باعتبارها القاعدة الرئيسية للقاذفات الأمريكية في أوروبا ؟

ولقد قدم له ماكميلان في هذه النقطة تأكيدات بعثت الاطمئنان الكامل الى نفسه ، ذلك ان الرأي الذي يسود الحكومة البريطانية هو أن بريطانيا كلها سوف تستظل « بالظلّة » الأمريكية ، حتى لو أدى بها ذلك الى الهلاك . كذلك اتفق ايزنهاور و ماكميلان على الحاجة الى التجارب الهيدروجينية والاستراتيجية النووية . وأكد ماكميلان للنواب أن بريطانيا سوف تواصل تجاربها على جزيرة كريسماش في الباسفيكي ، وأن ما أبدته اليابان من مخاوف خاصة بوصول الاشعاع الذري اليها لا مبرر له ، لأن اليابان تبعد ٤٠٠٠ ميل عن مركز التفجير

ولقد أبدت أمريكا استعدادها لتزويد بريطانيا بالقاذف الموجهة على أن تظل الرعوس الذرية تحت اشراف أمريكي .

هذا وقد أكد نافدو ماكميلان ، بعد عودته من برمودا ، أنه كان في لهفة على استرضاء أمريكا بعد مفامرة السويس ، حتى أنه وافق على الخطة السياسية التي وضعتها أمريكا دون أدنى معارضة . وقد علق ريجنالد باجيت ، على موقف ماكميلان قائلاً : أنه اذلال لم تقبله دولة كبرى من قبل . وبعد شهور قليلة أصبحت سياسة بريطانيا الدفعية واضحة كل الوضوح ، وهي ان تصبح رادعا نوويا تحت تصرف أمريكا وفي خدمتها !

الدكتور جيميل ومسترهايد زوالو جيمين

في ١٢ من مارس ١٩٥٨ وجه ماكميلان خطاباً الى اللجنة السياسية في حزب المحافظين ، وقد نشر خطابه في كتيب تحت عنوان « الطريق الوسيط » وهذا يذكرنا بكتاب آخر تحت هذا العنوان نفسه كان قد نشره منذ عشرين عاماً .

وقد بدأ خطابه ، او كتيبه ، بالقول بأن عضو البرلمان المحافظ اذا كتب فهو إنما يعبر عن رأيه الشخصي فقط وليس عن رأي الحزب ، وأن هذا العضو نفسه قد يناقض في خمسينات القرن ما سبق أن اعتنقه في الثلاثينات من مبادئه .

والحقيقة ؛ التي لا مراء فيها ، أن ماكميلان استطاع بحيله ومهارته في المداورة ، والتلاعب بالمبارات ، والتظاهر أحياناً بأنه مخطيء وأنه يلوم نفسه على ذلك ، استطاع بذلك كله أن يفوز بالعطف بل بالتقدير . ولكنه

في الحقيقة أصبح شخصا يختلف اختلافا تاما عن ماكميلان الشاب النائر وآرائه التقدمية واتجاهه الى خدمة الطبقات العاملة . وحينما كان نائبا شابا حديث عهد بمجلس العموم ، تنكر لزعماء حزب المحافظين الذي ينتمي اليه ووصف هؤلاء الزعماء بأنهم كالحشيش المسندة التي لا تعي ولا تفقه شيئا ولكنها كما تريد لها التقاليد العتيقة البالية أن تتحرك . وكان من بين هؤلاء الزعماء تشمبرلين ، وبولدين ، وماكدونالد . أما القدامى من أعضاء البرلمان المحافظين ؛ الذين كانوا يسخرون منه في بداية حياته البرلمانية ، فقد أصبحوا اليوم من أقوى أنصاره ومن أشد المتحمسين لتأييده .

تري : هل تغير ماكميلان أو تغير هؤلاء المحافظون ؟

حينما كان تشرشل من شباب الاحرار ، قبل أن ينضم الى صفوف المحافظين ، ثم قبل أن يصبح زعيمهم ؛ وصف جماعة المحافظين بأنهم « عصابة » تضم أصحاب المصالح في اتحاد قوى لاستغلال الشعب . فهم يقارفون الظلم داخل بلادهم ، ويحاولون ستر جريمتهم الوطنية بجريمة خارجية على حساب شعوب أخرى . وماكميلان بدوره لم يبلغ مابلغه تشرشل من الفصاحة وسحر البيان ولكن هؤلاء المحافظين لم يسلموا من لسانه . وإذا كان تشرشل قد انتهى به المطاف الى زعامة أولئك الذين ندد بهم واستنكر سلوكهم المريب ، فإن ماكميلان أيضا لم يشذ عن تلك القاعدة .

لقد قدم القصص الاسكتلندي ستيفنسون ، للعالم مثالا خالدا لصاحب الشخصية المزدوجة ، ممثلا في الدكتور جيكل والمستر هايد ، وماكميلان لا يخرج في حياته السياسية عن أنه هذا الانسان المزدوج الشخصية الذي يظهر على المسرح مرة في ثوب المستر هايد ويظهر مرة أخرى في زي الدكتور جيكل .

لقد درس الاقتصاد ، في حياته الاولى ، وأخرج بعض كتيبات اقتصادية ليست ذات قيمة علمية ، ولكنها على أي حال توحى بأنه يأخذ نفسه بالدرس والتحصيل ؛ وأنه يتجه نحو الاصلاح الاجتماعي ، ويعمل بجد لحل المشاكل الاجتماعية الكبرى ، كمشكلة الفقر ومشكلة البطالة والظلم الاجتماعي .

كذلك كان في حياته الاولى يدعو الى اعداد برنامج شامل لاعادة التنظيم الصناعي ، واتهمه قدامى المحافظين في ذلك الوقت بأنه يدعو الى آراء توتزية .

لقد قال في الخطاب ، الذي وجهه لشباب المحافظين ، ان كثيرا من الآراء التي تضمنها كتابه « الطريق الوسط » الذي صدر منذ عشرين عاما أصبح اليوم غير ذي موضوع . ولكن : هل حقيقة أن الاوضاع البريطانية التي انتقدتها ماكميلان عام ١٩٣٨ قد تغيرت وحلت محلها أوضاع جديدة أكثر صلاحية عام ١٩٥٨ ؟ الواقع أنه حدثت تغييرات كبيرة سواء في معدل البطالة أو في مستوى المعيشة أو في الخدمات الاجتماعية ، ولكن الفضل في ذلك كله يرجع الى الاجراءات التي اتخذتها الاشتراكيون البريطانيون الذين يسخر منهم ماكميلان الآن ويوجه اليهم نقده اللاذع .

لقد تضمن كتاب ماكميلان القديم « الطريق الوسط » اصدار
تشريعات تستهدف إعادة التنظيم الصناعي ، بحيث تضمن للطبقة العاملة
مستوى عاليا من المعيشة ، وهذه التشريعات تقتضى تدخلا كبيرا من الدولة
في المشروعات الرأسمالية الفردية ، يمكن بذلك رفع مستوى الاجور
واحاطة العمال بالضمانات الاجتماعية . فهل طالب ماكميلان عام ١٩٥٨ ،
وهو رئيس للوزراء ، بمثل هذه التشريعات ؟ لا . فهو يعلم علما تاما انه
تو فعل ذلك لتتكرر له اصحاب المصالح الكبرى ، ولهم من المحافظين ؛
ولعملوا سريعا للتخلص منه . لقد قبلوه رئيسا للوزراء بشرط ضمنى ،
وهو ألا يصدر مصلحهم بسوء ، وألا يصدر أى تشريع من شأنه أن يؤثر على
رأس المال الخاص .

ولقد تحدث ماكميلان في كتابه السابق « الطريق الوسط » عما
لنقابات العمال من أهمية كبرى ، حتى لقد قال ان الفارق الاساسى بين
مجتمع ديمقراطى ومجتمع يقوم على الحكم الاستبدادى هو وجود نقابات
العمال في المجتمع الاول واختفاؤها من المجتمع الثانى ، ولا يكفى هذا بل
لا يد من أن تقوم النقابات على أسس تنظيمية يختارها العمال أنفسهم ،
وأن كل تنظيم صناعى لا يكفل حقوق العمال انما هو تنظيم رأسمالى
خاطيء .

هذا هو قوله في شبابه . ولك أن تفرق الآن بين آراء ماكميلان ،
الشاب التقدمى الثائر على الرأسمالية ، وبين ماكميلان رئيس الوزراء وزعيم
المحافظين حينما يقول عن نقابات العمال :

نحن جماعة المحافظين نرى أن الهدف الاول هو الوحدة القومية .
ولكن اذا كان المحافظون يهدفون حقا الى الوحدة القومية فلماذا لا يقبلون
بين صفوفهم من يمثل نقابات العمال والتعاونيات ، فهل هؤلاء لا تضهم
عبارة الوحدة القومية ؟ أو أن الوحدة القومية وقف على طبقة ممتازة ، هي
حزب المحافظين ؟ .

الواقع أن ماكميلان ، الشاب ؛ ما كان ليعارض الاشتراكية أو التأميم
من حيث المبدأ ، بل كان على استعداد لقبول تأميم بعض الصناعات، ولقد
أنهى كتابه بفضله عن « إعادة التنظيم الصناعى » قال فيه : يجب قبول
العلاج الذى اقترحه الاشتراكيون ، وهو تأميم بعض الصناعات والخدمات
التي ينطبق عليها المبدأ العام ، وهو : هل استنفد المشروع الفردى
اغراضه الاجتماعية ؟ وهل الاصلاح للاقتصاد الوطنى أن ننظر الى بعض
الصناعات والخدمات الرئيسية نظرة أوسع وأشمل على أساس من الاعتبارات
الاجتماعية بدلا من أن ننظر اليها من ناحية تحقيق الربح فقط ؟ .

فماذا جرى حتى تتعرض حكومة العمال الى نقد ماكميلان العنيف
وسخريته اللاذعة لسبب واحد فقط وهو أنها طبقت ما سبق أن أوصى به
في كتابه « الطريق الوسط » ؟ .

ان الشيء الوحيد الذى جرى ، هو أن ماكميلان تنكر لمبادئه في سبيل
الاحتفاظ برضاء المحافظين عنه ، أو بمعنى آخر في سبيل الفوز برئاسة
الوزارة وزعامة حزب المحافظين .

رحلة ماكميلان الى الاتحاد السوفيتي

لقد أثارت رحلة ماكميلان الى الاتحاد السوفيتي في فبراير ١٩٥٩ اهتمام العالم بأسره ، وكثير التساؤل عن السبب الذي حدا به للقيام بهذه الرحلة والامل الذي يريد تحقيقه من ورائها. ولقد استقبلت موسكو هذا الزائر الغريب المفاجيء القادم من الغرب بما يستحقه من تكريم . وحينما هبط من الطائرة التي أقلته الى الاتحاد السوفيتي عزفت فرقة موسيقى الجيش الاحمر نشيدا عسكريا ، وكان في استقباله في المطار خروشوف وكبار رجال الحكومة السوفيتية والهيئة الدبلوماسية، وتعالى الهتافات حينما أخذ يستعرض حرس الشرف .

وقد أثارت قبعته البيضاء المصنوعة من جلد الدب، كثيرا من الدهشة والسرور ، اذ يبدو أنه أول زائر وصل الى موسكو في هذا الزى . ولقد علقت الصحف على قبعته الغربية قائلة انها أهديت اليه من صديق كندي وعلى أى حال فلم تكن لباس رأس مألوف في موسكو . وقد ألقى خروشوف خطابا ترحيبا مسهبا ذكر فيه أن ماكميلان قد سبقت له زيارة الاتحاد السوفيتي منذ ثلاثين عاما مضت ، وفي هذه الفترة الطويلة تغيرت معالم الاتحاد السوفيتي بل تغير العالم كله . وأكد خروشوف في خطابه أن الاتحاد السوفيتي ينشد السلام ، وأنه على استعداد للدخول في محادثات مثمرة ، ودعا الى التفاهم بين بريطانيا والاتحاد السوفيتي قائلا انه خير السلام العالمي .

وكان قد مضى على زيارة خروشوف الى لندن ثلاث سنوات حتى ذلك التاريخ ، وفي هذه الفترة تأثرت العلاقات بين البلدين بالحرب الباردة ، ولكن خروشوف أعلن أنه يعتبر زيارة ماكميلان لموسكو اذابة لجليد الحرب الباردة وأن الاتحاد السوفيتي يرحب ترحيبا حارا بهذه الزيارة ، وسوف يبذل أقصى ما يستطيع من جهد ليجعل منها زيارة مثمرة .

ومن الواضح أن ماكميلان تأثر كثيرا بهذا الاستقبال الحافل . ولندكر هنا أن أول رئيس وزارة بريطانية زار الاتحاد السوفيتي هو ونستون تشرشل ، وكان ذلك في أثناء الحرب العالمية الثانية ، أما ماكميلان فهو أول رئيس وزارة بريطانية يزور الاتحاد السوفيتي وقت السلم .

وقد كان لزيارته أسباب ثلاثة : أولاها أنها رد لزيارة خروشوف للندن منذ ثلاث سنوات سابقة ، وثانيها أن ماكميلان كان يود أن يشهد بنفسه ما حققه الاتحاد السوفيتي من تقدم منذ زيارته السابقة له ، وقد مضى عليها نحو ثلاثين عاما ، والسبب الثالث أنه كما يريد أن يجرى محادثات جدية أملا في الوصول الى تفاهم يخفف من حدة التوتر الذي يسود العالم وصرح ماكميلان بأن هذا هو أهم أهدافه ، وأنه يرجو ألا يعود من موسكو الا وقد حققه كله أو معظمه .

وقد غادر خروشوف وماكيلان موسكو الى مقر ستالين الريفى ، حيث بدأ محادثات طويلة ذكر فيها خروشوف ضيفه بأنه سبق أن وجه

حديثا الى الشعب البريطانى دعا فيه الى اجراء محادثات سوفيتية بريطانية لعقد ميثاق عدم اعتداء بين البلدين ، وهنا أعلن خروشوف أن الاتحاد السوفييتى على أتم استعداد لاجراء محادثات بشأن هذا الميثاق ، بل وتوقيعه .

وقد أثار تصريح خروشوف الحيرة فى نفس ماكميلان الذى لم يكن يتوقع مثل هذه التطورات المفاجئة . ومن المؤكد أنه لم يجرى الى موسكو لتوقيع ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتى ، لأنه لن يجرؤ على أن يفعل ذلك قبل استشارة حلفاء بريطانيا .

وحينما ظهر رئيسا الوزراء فى المقصورة الخاصة فى مسرح البولشوى لاحظ الصحفيون عليهما الوجود ، وأن تلك الحرارة التى كانت باديه عليهما فى أول استقبال قد فترت كثيرا عما قبل . وكان من المفروض أن يسافرا معا الى كييف ، ولكن خروشوف اعتذر فى اللحظة الأخيرة ، بحجة أنه يحضر ألما شديدا فى أسنانه . وقد كتبت الصحف البريطانية بأن اعتذار خروشوف من عدم اصطحاب ماكميلان الى كييف اهانة شخصية لرئيس وزراء بريطانيا ، وطالبت بأن يلغى ماكميلان زيارته الى كييف وليننجراد وأن يعود أدراجه الى لندن . ولكن ماكميلان ذهب لزيارة ليننجراد حيث وجد فى استقباله ميكويان الذى حضر خصيصا من موسكو لاستقباله . ولم يظهر ماكميلان أى استياء أو شعور بالكرامة المجرعة ، وهكذا مر الحادث بسلام وتحسن الجو ، وهذا مما ساعد على تجديد المحادثات مع خروشوف فى موسكو .

ولقد التى ماكميلان عدة خطابات أعلن فيها عن رغبته فى أن تكون للعلاقات بين بريطانيا والاتحاد السوفييتى ودية ، وشرب أنخابا كثيرة قبل على أنه كان حقيقة يعنى ما يقول . وكان أهم خطاب يدور حول هذا المعنى ، ذلك الذى القاه فى السفارة البريطانية بموسكو فى مادبة أقامها تكريما لخروشوف .

وقد وجه ماكميلان حديثه فى هذا الخطاب الى خروشوف قائلا : سيدى رئيس الوزراء : لقد شهدت بنفسى جهودكم العظيمة فى بناء اقتصاديات الاتحاد السوفييتى ، ولشد ما أعجبنى المأمك بتفاصيل المشروعات والبرامج التى أنتم بسبيل تنفيذها . وإن هذا هو حق برنامج انشائي عظيم ، وإن آفاق المستقبل لتبدو أمام الاتحاد السوفييتى فسيحة وواسعة . لقد شاعت الافران العالية يرتفع لهما عاليا فى سماء الاتحاد السوفييتى وفوق ما كان من قبل أرضا مقفرة ، ليعلن هذا اللهب للعالم أن هذه أرض المستقبل . وليس ما أقوله سرايا أو خيال شاعر ، ولكنه الحقيقة الواقعة . أن السرعة التى تم بها تقدمكم الصناعى شيء غير عادى لا مثيل له فى التاريخ .

ورد عليه خروشوف مثنيا على أماله كوزير للإسكان ووزيرا للخارجية وزيرا للمالية ، وهكذا ذهب كل من الرجلين شوطا بعيدا فى اصفاء الثناء على الآخر ، حتى لقد شك الصحفيون فى أن ما قيل فى هذه الليلة كان كله ضاحكا للنشر . ولكن السفارة البريطانية فى موسكو أياحت للصحفيين نشر كل ما كتب ، حتى ما قيل من أن سهول الاتحاد السوفييتى هى « أرض المستقبل » . ولقد قلق بعض الصحفيين عما سوف يكون عليه صدى خطاب

ماكميلان في صفوف المحافظين في بريطانيا ، وأظهر آخرون خوفهم مما سوف يكون لهذا الخطاب من رد فعل عنيف في بون ، وباريس ؛ وواشنطن .

وهكذا بدا أن « ألم أسنان » خروشوف قد زال ، ولذلك عاد الى الحديث مرة ثانية عن ميثاق عدم الاعتداء بين موسكو ولندن ، فقال في حديثه مع ماكميلان :

لقد اقترحنا توقيع اتفاق عدم اعتداء بين الاتحاد السوفيتي وبريطانيا اعتقادا منا بأن ذلك سوف يتيح الفائدة العظمى لشعبينا وللسلام العالمي . وطبقا لهذا الاتفاق يكف كل من البلدين عن توجيه أى نوع من الهجوم للبلد الآخر ، كما يعلن الطرفان أنهما لن يلجأ الى استخدام القوة بعضهما ضد البعض . ويتضمن مثل هذا الاتفاق ألا يسمح أى من البلدين بإنشاء قواعد أجنبية على أراضييه ، وأن تتخذ الاجراءات اللازمة لازالة القواعد الاجنبية القائمة فعلا .

وتقتضى روح الميثاق بأن أى خلاف بين البلدين ، مهما تكن درجته ، لا بد أن يسوى بالطرق السلمية والتفاهم المتبادل ، وذلك بإجراء محادثات طبقا لميثاق الامم المتحدة . واعتقادنا أن هذا سوف يلقي ترحيبا حارا من الشعبين البريطاني والسوفيتي .

وقد رد ماكميلان على هذا الخطاب ولكنه تحاشى الخوض في الحديث عن ميثاق عدم الاعتداء واكتفى بأن قال :

ان ردى على ميثاق عدم الاعتداء الذى تقترحونه (بلاحظ القارئ هنا كتب ماكميلان لان اقتراح ميثاق عدم الاعتداء كان صادرا منه أصلا في حديث اذاعى سبق أن وجهه الى الشعب البريطانى) هسو أنى على استعداد للموافقة فورا على ما يلى :

١ - أن بريطانيا على استعداد للعمل طبقا لميثاق الامم المتحدة نصا وروحا في كل نزاع يثار بين البلدين .

٢ - لا ينبغي لاي من البلدين أن يسعى من جانبه الى الاضرار بما للبلد الآخر من حقوق والتزامات ومصالح حيوية .

٣ - طبقا لهذين المبدأين فان الحكومة البريطانية توافق على أن كل نزاع يجب أن يسوى بالمفاوضات ، لا بالقوة .

٤ - من المسلم به أن مثل هذا الاتفاق لا ينبغي أن يتعارض مع تسلك كل منا التام بحلفه الدفاعي ، الى أن يجيء اليوم الذى يستغنى فيه العالم عن مثل هذه الاجراءات الوقائية .

وكان ماكميلان يقصد بعبارة الاخيرة بعث الاطمئنان الى بون وباريس وواشنطن ، وقد صرح في حديث اذاعى قائلا :

سوف نبدأ بميثاق عدم اعتداء ؛ وهذا ليس شيئا جديدا ، ولن يترتب عليه أى ضرر بل انه على العكس سوف يكون محمود العاقبة .

هكذا يرى القارئ أن ماكميلان أعلن أنه سوف « يبدأ » أى أنه سوف

يتخذ الخطوة الاولى نحو عقد ميثاق عدم اعتداء ، ولكن لا ندرى ما الذى قاله خروشوف من وراء ستار حتى أصابه « ألم الاسنان » !

وحينما عاد الى لندن ألقى خطابا قال فيه ان بريطانيا فى أشد الحاجة الى السلام ، لانه هو السبيل الوحيد الى تنمية تجارتها الخارجية . ومن ثم الى رخائها ، واعترف بان هناك خلافات كبيرة بين الاتحاد السوفييتى وبريطانيا ولكنه أكد أن هدفهما واحد ، وهو الحيلولة دون نشوب حرب عالمية ثالثة .

ولاشك فى أن مشاهدته فى موسكو وكييف وليننجراد قد خلفت انرا عميقا فى نفسه وبخاصة أنه كان قد زار الاتحاد السوفييتى منذ ثلاثين سنة . ولذلك فهو يستطيع ادراك التقدم الهائل الذى حققه الاقتصاد السوفييتى فى هذه الحقبة .

ولقد زار ماكملان الجامعة الجديدة على مرتفعات لينين ، ولما سأل مديرها : كم عدد طلبة الجامعة ؟ أجاب المدير بان بها عشرة آلاف طالب نظامى ، وضعف هذا العدد من غير النظاميين والمتسبين ، وأن جميع الطلبة يتكلمون الانجليزية .

وقد أتاح المستولون السوفييت الفرصة أمام ماكملان لمشاهدة أكبر قدر من التقدم الذى أحرزه الاتحاد السوفييتى ، فزار دوبنا ، حيث أنشئ معهد الأبحاث النووية . وقد أطلعه المشرفون على المعهد على خمسة أقسام ، وهى قسم الأبحاث النووية ، وقسم الطاقة العليا ؛ وقسم الطبيعة النظرية ، وقسم الطبيعة النيوترونية ؛ وقسم المساعلات النووية ، وما أن خرج ماكملان من المعهد حتى كان على يقين من أن الاتحاد السوفييتى فى مقدمة دول العالم فى الأبحاث النووية .

وفى أثناء وجوده فى كريف زار إحدى المزارع الجماعية ، واطلع على سير العمل فيها وعلى إنتاجها الزراعى . وحينما زار ليننجراد أطلعه الاميرال يوجندنكو على محطة الجليد الذرية « لينين » وهى أول محطة جليد ذرية فى العالم .

وحينما قاربت زيارة ماكملان للاتحاد السوفييتى نهايتها ظهر مشكل جديد ، ذلك أن خروشوف كان يريد أن يضمن البيان المشترك إشارة الى ميثاق عدم الاعتداء ، فى حين كان ماكملان يعمل على تجنب ذكر الميثاق ، خشية أن يكون فى ذلك ما يفضب أمريكا وفرنسا والمانيا الغربية ؛ وأخيرا تم الاتفاق على بيان مشترك أولى به أن يوضع فى « سراديب المتحف الدبلوماسى » ، إذ كان كله تمنيات حول نزع السلاح ، ومنع التجارب النووية ، وأمل فى حل مشكلة برلين .

وبسبب فشل المحادثات فى الوصول الى حلول محددة لهذه المشكلات الكبرى فقد اعترفا فى البيان بالحاجة الماسة الى اجراء محادثات مبكرة بين الدول صاحبة المصالح لتسوية ما بينها من خلافات ، إذ أن مثل هذه المحادثات سوف تكون أساسا للامن الاوروبى . كذلك أعلننا اتفاقهما على مواصلة البحث فى موضوع تعزيز الامن ، وذلك بتحديد القوات والاسلحة

التقليدية والنووية في منطقة أوروبية يتفق عليها ، وأن يقترن ذلك بالاتفاق على إنشاء نظام للتفتيش .

وتضمن البيان اشارة الى موافقة الطرفين على التبادل الثقافي بين بريطانيا والاتحاد السوفيتي ، على أن يقوم وزير بريطاني بزيارة قريبة لموسكو للبحث في الامكانيات اللازمة لمضاعفة التجارة بين البلدين .

وأتيحت الفرصة أمام ماكميلان كي يوجه حديثا في التليفزيون للشعب السوفيتي ، ومما هو جدير بالذكر أن التليفزيون شائع الاستعمال هناك ، وأن عشرات الملايين من الاجهزة موزعة على المدن بل القرى السوفيتية . وقد استهل ماكميلان حديثه الى الشعب السوفيتي بوصف أسلوب الحياة في بريطانيا ، وكيف ان الحياة فيها قد تغيرت تغيرا تاما عما كانت عليه في عهد ديكنز ممثلة في قصة « أوليفر تويست » وذكر الارقام الضخمة التي تنفقها بريطانيا على الآلات الزراعية والسيارات والمساكن وأجهزة المنازل ، ثم تحدث عن الجامعات البريطانية وعدد طلبتها . كذلك ذكر ماكميلان أن مستوى المعيشة في بريطانيا أعلى منه في أي بلد أوروبي آخر .

ولم يفته أن يتحدث عن الحياة الروحية قائلا ان الانسان لا يحيا بالمادة وحدها ، بل لا بد من توازن بين الحياة المادية والحياة الروحية ، وأن البريطاني يأخذ من كل منهما بنصيب، وأخيرا فان الدولة تعيش من أجل الفرد ، وليس يعيش الفرد من أجل الدولة .

هكذا عاد ماكميلان الى انجلترا وكأنه رجل السلام ، فهتف له المحافظون في مجلس العموم وكذلك هتفت له المعارضة ، وكانت هذه المرحلة حركة بارعة من ماكميلان وبخاصة أنه مقبل على الانتخابات العامة .

ولنتنقل الآن الى جانب آخر من الصورة لنجد نقدا عنيقا موجها الى ماكميلان ، من بون وباريس وواشنطن ، بسبب رحلته الى موسكو ؛ وأصبح لزاما عليه أن يزور العواصم الثلاث لشرح وجهة نظره . وما تم في رحلته الى موسكو .

والذي أثار العواصم الثلاث، وبخاصة برلين، هو ما أشار اليه البيان المشترك من قبوله لفكرة إنشاء منطقة منزوعة السلاح في أوروبا ، وهذا يذكرنا بمشروع راباكي لانشاء منطقة منزوعة السلاح في أوروبا الوسطى ، وهو المشروع الذي قبله الاتحاد السوفيتي ورفضته فرنسا وألمانيا الغربية والولايات المتحدة .

ولقد كتب مراسل «التايمز» في باريس أن ماكميلان ووزير خارجيته سلوين لويد حينما زارا باريس ، لتوضيح موقفهما من مشروع المنطقة المنزوعة السلاح ، وجدا مشقة كبرى في اقناع المسؤولين الفرنسيين بوجهة نظرهما ، وقال ماكميلان انه لم يتصد مطلقا لانشاء « فراغ » في وسط أوروبا ، وأن ما قصده ليس مشروع راباكي ، بل المشروع الذي اقترحه ايدن عام ١٩٥٥ ، وهو الذي يقضى بتحديد الاسلحة والقوات العسكرية في منطقة يتفق عليها ، على أن يقترن ذلك بنظام محكم للتفتيش .

وعلق مراسل « التايمز » على زيارة ماكميلان لباريس قائلا : انه رئيس الوزراء فشل في اثارة اهتمام المسؤولين في فرنسا بزيارته لموسكو . واذا كانت الدوائر الرسمية لم توضح موقفها توضحا تاما من هذه الزيارة . فان الدوائر غير الرسمية قد اوضحت موقف فرنسا بما لا يدع مجالا للشك . ذلك ان فرنسوا بونسيه ، سفير فرنسا السابق في المانيا الغربية ، كتب مقالا في جريدة « الفيجارو » قال فيه ان زيارة ماكميلان لموسكو تشبه زيارة تشمبرلين لميونخ .

وهناك نقطة اخرى قد تعتبر شخصية ، وهي ان ديچول استاء من ان ماكميلان قد اتخذ لنفسه « مركز الزعامة في الغرب » .

اما اديناور فقد القى خطابا اقل ما يقال عنه انه « فاتر » وقد استنكر فيه موافقة ماكميلان على انه « يجب عمل شيء » في موضوع الاعتراف بالمانيا الشرقية ، قائلا ان هذا لم يكن متوقعا من ماكميلان .

اما الصحافة الامريكية فقد وجهت سيلان من النقد الى ماكميلان ، فقد انكرت عليه صحيفة « نيويورك تايمز » اتخاذ دورا أساسيا في معاملة الغرب للاتحاد السوفييتي وأنه كان يحاول استرضاء موسكو .

وحينما زار ماكميلان واشنطن ألح على ايزنهاور في قبول اقتراح عقد مؤتمر الاقطاب ، وأكد له انه لم يفكر مطلقا في استرضاء السوفييت .

وكتبت مجلة « تايم » انه عقد اجتماع هام في منزل ريتشارد نيكسون نائب رئيس الجمهورية في عهد ايزنهاور ، واشترك في هذا الاجتماع كبار رجال الكونجرس الامريكي ، الذين شددوا الخناق على ماكميلان بشأن زيارته للاتحاد السوفييتي . وقد رد ماكميلان على هؤلاء قائلا : انني مصمم على عقد مؤتمر للاقطاب لتخفيف حدة التوتر بين الشرق والغرب . ليس في استطاعتي ان اذهب الى الملكة لا طلب اليها الموافقة على اجلاء ملايين النساء والاطفال والمسنين عن دورهم وارسالهم الى بلاد الكومنولث الا بعد ان استنفد كل وسيلة للتفاهم .

وقد اتهمه كثير من أعضاء الكونجرس ، وخاصة سنابل بروجس ، وجون ماك كورماك ؛ بأنه يسترضي الاتحاد السوفييتي . وهنا نار ماكميلان قائلا : أنا لست نيفل تشمبرلين ، وأعلن لكم أنني أول من يكره كلمة « استرضاء » .

وعلى أية حال فقد وافق بعض أعضاء الكونجرس على موقف ماكميلان ، وبخاصة السناتور هيرت همفري ، والسناتور ليفريت سالتونستول ، أما ايزنهاور وكثيرون من كبار المسؤولين فقد كانوا مترددين في قبول عقد مؤتمر للاقطاب من غير أن يسبق ذلك مؤتمر تمهيدي على مستوى وزراء الخارجية .

والذي يستخلص من موضوع رحلة ماكميلان الى موسكو أنها اذا كانت قد أثارت ضده باريس وبرلين ، وقوبلت بكثير من الشك والتردد في واشنطن ، فقد رحب بها الشعب البريطاني وكانت سندا قويا لماكيلان في الانتخابات التالية .

بيع رئيس الوزراء

قبل الانتخابات العامة الاخيرة فى بريطانيا فى أكتوبر ١٩٥٩ ، كان المحافظون قد اعدوا حملة قوية منظمة للدعاية ، وانفقت الشركات الكبرى مبالغ ضخمة على الاعلان ، سواء فى الصحف او بالانفقات او بآلة وسيلة من وسائل الاعلان رأها الخبراء الذين استأجرهم حزب المحافظين . وكان من بين وسائل الاعلان صورة ضخمة لهارولد ماكميلان وهو يطل من عل على الشعب الانجليزى من أقصى البلاد الى اقصاها ، وقد قدره « بتلر » ما أنفقه حزب المحافظين على الدعاية للانتخابات فيما بين عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٩ بما لا يقل عن ٤٦٨ ألف جنيه استرليني ، وكان من بين وسائل الاعلان توزيع ٢٥٠ ألف حديث مسجل لماكميلان على مختلف الدوائر الانتخابية . وقد علق كروسمان على ذلك قائلا : « ان رئيس الوزراء كان يوزع على الجمهور فى بريطانيا كما توزع أدوات التنظيف » !

وعلق جوردون ووكر ، فى احدى جلسات مجلس العموم ، على هذا الحادث قائلا : ان شركة كولمان وفارلى للاعلان كانت تعد صور ماكميلان « وتبيعه » كما تفعل ببقية اعلاناتها عن السلع الاخرى سواء بسواء مثل الشيكولاته وشاي ليونز وغيرها . والشئ الغريب فى ذلك هو قيام شركة اعلانات ببيع رئيس وزراء بريطانيا وبيع حزب المحافظين بل ببيع الاراء السياسية كأنها بضائع معبأة ، وكان بريطانيا قد صبت فى قالب امريكى .

ولم يكن فى تعليق جوردون شئ من المبالغة ، فقد سبق لحزب المحافظين ان بحث دونالد كابيرى ، نائب رئيس الحزب ؛ الى امريكا ليدرس أحدث وسائل الاعلان التى استخدمت فى انتخابات الرئاسة الامريكية .

وقد كان لفوز المحافظين فى الانتخابات رنة فرح عظيمة بين صفوفهم ، فارتفعت أسعار البورصة ، واطمان ملوك الصناعة البريطانية وكبار رجال الاعمال على أن مقعد وزير المالية الجديد لن يشغله رجل يصدر تشريعات تعوق ما هم جادون فيه من جمع للثروة وتكديس للاموال .

ولما اطمأن ماكميلان الى انه قد ثبت مركزه فى البرلمان اتجه الى ناحية اخرى وهى الناحية الدولية ، فاراد أن يحرز فيها من النصر ما أحرزه فى الانتخابات البريطانية العامة .

كان ماكميلان يسعى الى عقد مؤتمر للاقطاب يضم امريكا وفرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفييتي ، وقد استشعر الارتياح حينما تمت الموافقة على عقد هذا المؤتمر فى باريس . وكان ماكميلان قد مهد لهذا المؤتمر بالمحادثات التى أجراها مع خروشوف حين زيارته لموسكو ، ولذلك فإن الموافقة اذا تمت على ما جرى الحديث بشأنه فى موسكو لأصبح ماكميلان رمز السلام العالمى . وكانت المقصدمات تبعث على التفاؤل ، فقد سافر خروشوف قبل ذلك فى رحلة طويلة الى امريكا استطاع فى خلالها أن يذيب بعض ثلوج الحرب الباردة الكثيفة ، وبيع بعض التحسين فى

العلاقات بين أمريكا والاتحاد السوفيتي. ولما أعلن رسميا أنه قد تحدد شهر مايو ١٩٦٠ موعدا لانعقاد مؤتمر الاقطاب في باريس تنفس العالم الصعداء وأخذ يتقرب تفريج الازمات العالمية .

وهنا بدأت أسهم شركات الاسلحة الكبرى في أمريكا في الهبوط ، وأخذ كبار المثاليين في وول ستريت يتساءلون : ماذا يكون الموقف لو قدر مؤتمر الاقطاب النجاح ؟

ولكن سقطت فجأة من السماء صاعقة ، ذلك أن إحدى طائرات التجسس الأمريكية كانت في طريقها من باكستان الى النرويج فأسقطها السوفييت فوق أرضهم قرب مدينه سفرولوفسك . وقد احتج خروشوف في غضب وعنف قائلا أن هذا التجسس يتعارض مع جميع نصوص القانون الدولي ، وازداد الموقف سوءا حينما فسر الأمريكيون الموقف بأنها طائرة أمريكية ضلت طريقها . فقد أثبتت الوثائق ، التي عثر عليها السوفييت ، أن الطائرة كانت تتجسس فوق أراضيهم . وهنا أدرك العالم كله مدى مدى مالى الريان الأمريكى من كذب .

ولا ندرى ما علق به ماكميلان على هذا الحادث ، ولكن المهم أن الحادث حطم آماله تحطيما نهائيا .

كذلك لا ندرى أنس ماكميلان من نفسه المرأة على الاتصال بواشنطن والاحتجاج عليها لهذا العمل أم لا ، ولكن المؤكد أن ماكميلان لم يلق بيانا عتيقا ضد أمريكا في مجلس العموم البريطاني . وإذا كان قد سبأ أمريكا ولعنها بينه وبين نفسه أو بينه وبين الصفوة من أصحابه فإنه في المواقف العامة قد التزم جانب الدبلوماسية الدقيقة والمجاملة ، ولعله كان يخشى أن يؤدي الأمر الى عدم انعقاد مؤتمر الاقطاب ، ولم يطمئن قلبه الا حينما صدر اعلان من الكرملين بأن خروشوف سوف يشترك في مؤتمر الاقطاب .

هنا بدأ ماكميلان يسترد أنفاسه ، وأخذ يراوده الامل بأن يكون حكما ومصلحا بين الطرفين .

ذهب ماكميلان الى باريس ولديه أمل قوى في عمل شيء يحقق له المجد ، ولكن خروشوف حطم آماله مرة ثانية بتقديم شروط قاسية لم يقبلها ايزنهاور ، منها أن يقدم ايزنهاور اعتذارا رسميا وضمانا ألا تحلق طائرات التجسس « ي - ٢ » في سماء الاتحاد السوفيتي ومنها أيضا معاقبة المستوليين عن الحادث .

وقد أخذ ماكميلان يتردد بين الطرفين محاولا اصلاح ذات البين ، ولكنه فشل في محاولته ، كما أن مؤتمر الاقطاب كان أكبر فشل دولي منذ الحرب العالمية الثانية .

وهكذا عاد ماكميلان الى مجلس العموم حزينا كاسف البال ، إذ أن أمثيته الكبرى في تحقيق نصر دولي قد تحطمت .

ريج النغرترب على أفريقيا

لما تولى هارولد ماكميلان رئاسة الوزارة قرر أن يزور في خلال توليه هذا المنصب أكبر عدد من بلاد الكومنولث ، ففي أواخر عام ١٩٥٨ زار الهند وباكستان وسيلان وأستراليا ونيوزيلندة - وفي أواخر عام ١٩٥٩ قام برحلة الى أفريقيا زار في خلالها غانا ونيجيريا واتحاد افريقيا الوسطى (اتحاد روديسيا ونياسالاند) واتحاد جنوب افريقيا . ولم يكن هدفه من هذه الزيارات حل مشكلات معينة قائمة بين المملكة المتحدة وبلاد الكومنولث، فهذه بترك أمرها الى المسؤولين كل في دائرة اختصاصه، ولكنه كان يرى أن زيارة رؤساء وزراء بلاد الكومنولث لندن في مؤتمرهم السنوى لا ينبغي أن يكون عملا من جانب واحد ، بل يجب على رئيس وزراء بريطانيا أن يشاهد بنفسه مختلف بلاد الكومنولث وما يجرى فيها وماحقته من تقدم، ونحن نقر وجهة نظره هذه، فهي خطوة من جانبته تستحق التقدير والثناء

وقد كانت كل الظواهر تشير الى أن زيارات رئيس وزراء بريطانيا لمواصم الكومنولث كانت موضع تقدير كبير في هذه المواصم ، وهو من جانبها صرح بأن قضاء بضعة أسابيع في بلاد الكومنولث ليس معناه انهالم بجميع مشكلاتها ، ولكن هذه الزيارة أكسبته شيئا هاما ، وهو الشعور القوي بأن بلاد الكومنولث عامل قوى من عوامل السلام والتقدم في العالم في وقتنا الحاضر .

ولم يمض عام وبعض العام على هذه الزيارات حتى وقف ماكميلان يواجه التجربة الكبرى ، وهى المفاضلة بين الكومنولث والسوق الاوربية المشتركة . ولنا ان نتساءل هنا : الى أى حد كان ماكميلان على استعداد للتضحية بالسوق المشتركة في سبيل الاحتفاظ بالكومنولث ؟

لقد شهد بنفسه حين زيارته لغانا ، شهد مدى ما حققته هذه البلاد من تقدم اقتصادى وسياسى واجتماعى ، كذلك أدرك مساهم به الاوروبيون من نصيب كبير في هذا التقدم ، وما يبدو أنهم سوف يساهمون به في المستقبل ، وما تشعر به غانا من ود حقيقى نحو بريطانيا .

وفى نيجيريا ألقى خطابا ، فى أول اجتماع للبرلمان ، على أثر الاتفاق مع بريطانيا على اعلان استقلال نيجيريا ، وأدرك ما تنتظره نيجيريا من مستقبل زاهر وبخاصة بعد اكتشاف البترول وتطوير الزراعة فيها .

وفى اتحاد روديسيا ونياسالاند أجرى محادثات طويلة مع رئيس وزراء الاتحاد ومع رئيس وزراء روديسيا الجنوبية ومع حاكم نياسالاند ومع عدد كبير من زعماء مختلف الهيئات السياسية فى البلاد ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يكون صورة كاملة ، فهو مثلا لم يجتمع مع الدكتور هاستنجر باندا ، الذى كان لا يزال فى السجن .

وقد ألقى ماكميلان خطبا كثيرة ، ولكن أهم خطاب ألقاه وكان له صدى

قوى في اجزاء كثيرة من العالم ، هو الخطاب الذي القاه في برلمان جنوب افريقيا في ٣ من فبراير ١٩٦٠ . وقد بدأ ماكميلان خطابه هذا الطويل بنبرة عن جنوب افريقيا وعلاقتها ببريطانيا ووسيلة التعاون بين البلدين وكيف انهما عملتا معا باخلاص في حربين عالميتين ، كما تحدث عن الروابط الاقتصادية الوثيقة التي تمت بين البلدين طوال نصف القرن الماضي .

وتحدث بعد ذلك عن موجة القومية التي عمت البلاد الافريقية في الآونة الاخيرة وقال : ان نمو الوعي القومي بين الافريقيين حقيقة قائمة لا بد من الاعتراف بوجودها وليس في وسعنا الا أن نقبلها ، وأقصد بذلك ، انه لا بد لنا من أن نكون معها على وفاق . واعتقادي أننا اذا اعترضنا طريقها فكأننا بذلك نبعث مزيدا من الخلل في التوازن المضطرب القائم الآن بين الشرق والغرب ، وهو التوازن الذي يتوقف عليه السلام العالمي .

ان العالم اليوم مقسم الى مجموعات ثلاث كبرى ، وهي المجموعة الغربية أو ما نسميه بلاد العالم الحر وهذه تشمل أوروبا الغربية وأمريكا وبعض بلاد الكومنولث، والمجموعة الثانية هي الدول الشيوعية التي تضم الاتحاد السوفييتي وتوابعه والصين، وهناك مجموعة ثالثة فضلت عدم الانحياز الى الشرق أو الغرب . والموضوع الهام الذي سوف يشغل العالم كله في النصف الثاني من القرن العشرين هو موضوع هذه البلاد غير المنحازة ، وهل يستقر بها المقام أخيراً على الاتجاه نحو الشرق أو نحو الغرب .

ان الصراع اليوم ليس صراعاً مادياً بقدر ما هو صراع لكسب عقول الرجال ، وليست لدينا القوة العسكرية ولا المهارة الدبلوماسية ولا الكفاية الإدارية الكافية لاحراز النصر في هذه المعركة « انما سلاحنا هو أسلوب حياتنا . والبلاد غير المنحازة تقف موقف المتفرج على الشرق والغرب ، ولها بعد ذلك أن تختار .

هنا يقف ماكميلان متسائلاً : لقد ذكرت ان جنوب افريقيا بين بلاد « العالم الحر » فهل هي حقيقة بلاد يرفرف عليها علم الحرية ويتمتع العشرة ملايين افريقي الذين يعيشون هناك بحقوقهم الكاملة كمواطنين ؟

قد يعتبر تساؤلي هذا تدخلاً في الشؤون الخاصة لاحد بلاد الكومنولث ومبدؤاً في هذه الرابطة الدولية الا يتدخل احدنا في شئون الآخر الخاصة به . ولكن الشؤون الخاصة ببلد قد يكون لها أحياناً رد فعل خارج هذا البلد . واذا كانت الحكمة القديمة هي : « كن في حالك » فحكمة العصر الحاضر هي : « كن في حالك بشرط الا يؤثر ذلك على حال الآخرين » . وأود أن أصارحكم القول بأن مسئوليتنا في البلاد التي تولينا حكمها لم تكن مجرد رفع مستوى المعيشة وكفى ، وانما أن نخلق أيضاً مجتمعاً تحترم فيه حقوق الأفراد وتتاح فيه الفرصة أمام كل فرد لكي ينمي فرديته بحيث تصل الى مداها الكامل ، ومعنى ذلك أن يحصل الفرد على نصيبه من تحمل المسئوليات السياسية والاقتصادية في بلده .

هكذا أنهى ماكميلان خطابه في صراحة ووضوح بحيث لم يكن هناك مجال للشك فيما يهدف اليه . وكان لهذا الخطاب التاريخي صدًى بعيد

المدى تجاوز جنوب افريقيا الى القارة كلها ، ثم عبر الصحارى والبحار الى كل شعب ملون يريد أن يتخذ مكانه اللائق تحت الشمس . وأخذ القراء يتساءلون فى كل مكان : متى تهب ربيع التغيير فتكتسح جنوب افريقيا ؟ أن الدكتور هيستنجر باندا فى سجنه فى نياسالاند ، وجومو كينيديا فى سجنه فى كينيا ، فمتى تصل نسمات هذه الريح الى سجنيهما ؟ أن المقام لن يطول بهما !

السير فى ركاب أميركا

حين اجتماع البرلمان فى نوفمبر ١٩٦٠ . كانت الحكومة قد قررت الموافقة على منح الفواصات الامريكية ، التى تحمل قذيفة « بولاريس » قاعدة فى هولى لوتش باسكتلندة . واذا ما قارنا هذا الموقف الذى اتخذته الحكومة البريطانية بموقف دييجون حينما رفض بقاء القاذفات الامريكية فى فرنسا الا اذا اشترك الفرنسيون فى الاشراف عليها ، لتبين لنا ان بريطانيا كانت جد مستسلمة لأمريكا . وبخاصة أن دييجول ، فى محادثاته مع المسئولين الامريكيين بشأن قواعد للقاذفات الامريكية ، ذكرهم بأن القواعد فرنسية وعلى أرض فرنسية ، واذن فمن الطبيعى أن توضع هذه القاذفات تحت اشراف فرنسى كامل ، لا تحت اشراف وزارة الدفاع الامريكية .

ولما ووجه ماكميلان بكثير من الأسئلة فى مجلس العموم ، ألقى بيانا قال فيه ان بريطانيا تلقت العرض الامريكى باتخاذ قاعدة لغواصاتها الذرية ، فى أواخر عام ١٩٥٩ ، ثم جرت محادثات بينه وبين ايزنهاور فى هذا الموضوع حين اجتماعهما فى كامب دافيد فى مارس ١٩٦٠ ، واستمرت المحادثات بشأن النواحي الفنية والسياسية المرتبطة بهذا الاجراء حتى أكتوبر .

لقد كان فى بريطانيا قواعد جوية امريكية فى ذلك الوقت ، ولكن الموافقة على منح أمريكا قاعدة بحرية للغواصات ، تحت اشراف أمريكى ، يعتبر اجراء من نوع جديد ، وقد طوّل ماكميلان بنشر كتاب أبيض عن المحادثات التى تمت بشأن هذا الموضوع بين الحكومتين البريطانية والامريكية فرفض .

ان هولى لوتش ، وهى الموقع الذى اختير ليكون قاعدة لغواصة « بولاريس » ، يقع على نهر الكلايد على مسافة عشرين ميلا من جلاسجو ، ولذلك فان الاسكتلنديين لما علموا بالموافقة على انشاء القاعدة رفعوا أصواتهم عاليا بالاحتجاج ، وقدم مؤتمر نقابات العمال فى اسكتلندة ، ومجلس حزب العمال والسلطات المحلية ، احتجاجات شديدة مطالبين بتغيير موقع القاعدة .

ولم تقتصر المسألة على مجرد احتجاج بعض الهيئات ، بل ان القرار الذى اتخذته بريطانيا بالموافقة على انشاء قاعدة لغواصات « بولاريس »

الامريكية على اراضيها أو في مياهاها أثار المشكلة الكبرى ، وهي أن أمريكا تتخذ من بريطانيا قاعدة رئيسية لاستراتيجيتها في أوروبا الغربية .

ان في مدينة جلاسجو وحواليها ما يزيد على مليونين من السكان ، وهؤلاء سوف يتعرضون لأشد الأخطار اذا نشبت حرب نووية وقام السوفييت بمهاجمة القاعدة ، والاسكتلنديون يذكرون جيدا أن القاذفات البريطانية في الحرب الماضية طارت الى سواحل اسكتلندة لمهاجمة الغواصات الألمانية . وقد قدر الخبراء أن قنبلة هيدروجينية واحدة كافية لتدمير غرب اسكتلندة كله ، فما بالك اذا انضخت هولى لوتش قاعدة لخطر غواصة ذرية أمريكية وهي غواصة بولاريس .

وفي فترة الاسئلة وجه الاميرال جون وجديل سؤالاً الى ماكميلان عما اذا كانت أمريكا قد طلبت من بعض دول حلف الاطلنطي الاخرى منحها قواعد . وقد حاول ماكميلان ان يهرب من الاجابة ، ولكن الاميرال الح عليه ، فرد قائلا : ان موافقتنا على انشاء هذه القاعدة في صالحننا وفي صالح أمريكا وفي صالح حلف الاطلنطي كله ، وعلى أية حال فسؤال العضو المحترم خارج عن الموضوع .

ولكننا نرى أنه سؤال في صلب الموضوع ، فلماذا لم تحاول أمريكا ان تتخذ قواعد على سواحل النرويج مثلاً، وهي أكثر صلاحية من سواحل اسكتلندة لمثل هذا النوع من الغواصات ؟ واذا كانت النرويج غير مستعدة لإجابة مثل هذا الطلب الأمريكي فلماذا قبلته بريطانيا ؟ ثم ما مدى اثراف الحكومة البريطانية على تحركات غواصات « بولاريس » الأمريكية ؟ .

في ١٧ من ديسمبر أعلنت حكومة النرويج أنها قررت رفض تخزين الأسلحة النووية في بلادها ، وانها لم تتخذ هذا القرار الا بعد البحث الدقيق وتقدير جميع الاحتمالات . والآن يقف ماكميلان أمام مجلس العموم ليعلن في غموض وإبهام بأنه مقتنع بأن قذائف « بولاريس » التي تحملها الغواصات النرية لن تستعمل الا بعد المشاورات « الممكنة » مع الحكومة البريطانية ! .

ولكن ماعنى كلمة «ممكنة» هذه وما حدودها ؟ أضف الى ذلك أن البيان الذي ألقاه ماكميلان في مجلس العموم أثار الدهشة في أمريكا . فبادرت الحكومة الأمريكية بأصدار بيان مضاد أكدت فيه أن الاشراف على غواصات « بولاريس » سيظل من اختصاص الحكومة الأمريكية وحدها .

وحيثما طلب من واكنسون وزير الدفاع أن يلقي بيساناً على الرد الأمريكي قال : اعتقد أن سوء التفاهم نشأ من أن كلمة «الممكنة» الواردة في بيان رئيس الوزراء (ماكميلان) قد حذفت من النص المنقول لأمريكا .

ولكن اذا كان حذف كلمة واحدة قد أثار سوء التفاهم بين بريطانيا وأمريكا ، فهل من غير المحتمل ان يحدث خطأ في تفسير أية رسالة بين واشنطن وغواصة « بولاريس » تعمل في المحيط المتجمد الشمالي ؟

ولم يقف استنكار هذا الاجراء الذي اتخذته ماكميلان عند حد

المعارضة البرلمانية فقط ، بل ان صحيفة «سكوتش صندي» نشرت مقالا افتتاحيا تحت عنوان «الاتفاقية المذلة» قالت فيه ان موافقة بريطانيا على هذه القاعدة لابد ان تورطها في حرب نووية مع الاتحاد السوفيتي، ولو ان أمريكا عرضت هذا الاتفاق المذل مع اتفه جمهورية تحت وصايتها في أمريكا اللاتينية لرفضت قبوله .

ولنعد الى ماكميلان فنقول ان موافقته على انشاء قاعدة في المملكة المتحدة لغواصات «بولاريس» زاد من حدة التوتر الدولي الى درجة كبيرة وكان ماكميلان بعمله هذا يناقض ماأخذ به نفسه من الدعوة الى السلام . وليس أدل على التوتر الذي أثاره عمل ماكميلان هذا من الخطاب الذي ألقاه كوزلوف في موسكو بتاريخ ٦ نوفمبر ، اذ قال ان ماكميلان الذي كثيرا مادما الى اجراء مفاوضات من أجل السلام ، يعمل اليوم على تقويض دعائم السلام ، وهذا اكبر دليل على ان دعوته للسلام كانت زائفة .

ومضى كوزلوف يقول : ان ماكميلان في اثناء وجوده في أمريكا لحضور الدورة الخامسة عشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة ، كان يقوم بدور المنافق ، فهو يجتمع مع الأمريكيين لوضع الاسس التي بموجبها تنشأ قاعدة للغواصة الذرية الأمريكية «بولاريس» ثم يجتمع بالوفد السوفيتي زاعما ان الحاجة ملحة لاجراء مفاوضات لحل المشاكل الدولية

لقد كانت حجة ماكميلان في الدفاع عن موقفه أن استخدام الغواصة «بولاريس» يعتبر ركنا هاما من أركان الرادع النووي ، لانها بتجوالها تحت المياه المتجمدة القطبية تستطيع أن تجول قرب سواحل الاتحاد السوفيتي ، ولكن بعد أن فجر الاتحاد السوفيتي قنابله النووية التي تعادل قوتها ملايين الاطنان من المواد المتفجرة ، في المياه القطبية ، كتبت مجلة «ايكونوميست» أن السوفييت يستطيعون الآن أن يدمروا الغواصة «بولاريس» في المياه القطبية بقوة تفجيرهم النووي من غير حاجة الى معرفة مكانها . وهكذا تبين كذب الدعوى التي يقدمها ماكميلان بأن عمله هذا يقوى الرادع النووي ، وهذا أيضا يؤدي الى تجنب الحرب !

لقد كتب المؤرخ تيلور أن استسلام ماكميلان لأمريكا ، ليس الا نتيجة حتمية للسياسة التي سارت عليها بريطانيا في السنوات العشرين الماضية ، فقد درجت في هذه الحقبة على محاولة استرضاء أمريكا ، وليس تسليهاها قاعدة هولي لوتش الا حلقة من هذه السلسلة الطويلة .

وهنا يتساءل تيلور : لماذا يستطيع أدبناور أو ديجول أن يؤثر على توجيه السياسة الأمريكية ، في حين يعجز ماكميلان عن ذلك ؟ ان السر في ذلك يرجع الى شعور أمريكا بأن فرنسا والمانيا الغربية مستقلتان، وليس الحال كذلك مع إنجلترا .

بين أصحاب الملايين

من المفروض أن يتنازل رؤساء الوزارات والموزراء وكبار رجال الحكومة عن مراكزهم في الشركات حينما يتولون الحكم ، فهذا ما جرى عليه العرف والنظام فإذا ما خرجوا من الحكم استأنفوا عملهم في الشركات البيوت المالية وغيرها ، مثال ذلك أن أنطوني ايدن كان مديرا لأحد البنوك في أثناء وزارة العمال وإن أليفير ليتلتون وزير المستعمرات في وزارة تشرشل ، كان يرأس شركة مالية كبرى قبل توليه منصب الوزارة . وحينما خرج من الوزارة تولى رئاسة مجلس إدارة شركة الصناعات الكهربائية ، وإن ويتلر وهو خارج الحكم كان يتولى منصبا كبيرا في شركة كورتولنز للحريير الصناعي .

وهكذا يعود هارولد ماكميلان الى «مؤسسة ماكميلانز» للنشر حينما ينتهى عمله كرئيس للوزراء . ولما سافر الى جلاسجو في نوفمبر ١٩٦١ القى خطبا في مأدبة أقيمت تكريما له وحضرها كبار رجال المال والصناعة في اسكتلندا ، وقد استطاع ماكميلان أن يجمع من هؤلاء الاثرياء مبالغ كبيرة من المال لدعم مالية حزب المحافظين . وحينما عاد الى لندن وجسه اليه النواب أسئلة عن هذه الزيارة ، وأبدى بعضهم نقده لرئيس الوزراء قائلا انه لا يليق بكرامة رئيس وزراء بريطانيا أن يذهب الى اسكتلندا ليجمع الاموال لحزبه ، وقد استشعر ماكميلان الحرج وحاول التخلص من الاجابة .

وأخيرا رد ماكميلان بأن خطابه لم يسجل ولم يحتفظ أحد بصورة له ، وليس من الصعب علينا أن نذكر السبب في أن الخطاب لم يسجل ولم يرغب ماكميلان في الاحتفاظ بصورة له ، ذلك أن المتبرعين بالمبالغ الضخمة لحزب المحافظين من كبار رجال الصناعة وملوك المال الذين كانوا يضعون السياسة التي يسير عليها ماكميلان وكانهم يقولون للشعب البريطاني : نحن الحكومة ممثلة في شخص ماكميلان .

وقد كتب روبرت بيتمان في عدد ١٧ من يونيو من صحيفة «صنداي اكسبريس» متسائلا : هل ماكميلان مليونير ؟ ورد على ذلك السؤال قائلا : أن من يخرج الى انزهة في الريف المجاور الى لندن يجد قصرا ريفيا فخما محاطا بسياح كبير . هذا هو «بيرش جروف» قصر ماكميلان الريفى . فاذا عدت الى لندن واتجهت الى شارع ستراند فهناك بناء ضخم يضم مباني مؤسسة ماكميلانز ، ويملك هارولد واخوته جميع اسهمها البالغ عددها ٣٧٠٠ ألفا باستثناء ٥٠٥ اسهم فقط ، وإذا أضفنا الى ذلك قيمة الممتلكات الاخرى تبين لنا ان هارولد ماكميلان وشقيقه دانييل ماكميلان يملكان

ثروة تزيد على أربعة ملايين جنيه استرليني . هذا بخلاف الاراضى .
والقصور التى تمتلكها زوجة ماكميلان وابنه .

وقد يقال ان هذا ماورثه الشقيقان . ولكن ذلك قول مردود . ذلك
ان موريس كروفورد ماكميلان ، والد هارولد ماكميلان ، حينما توفى عام
١٩٣٦ ترك ثروة قدرت بنحو ١١٢ ألف جنيه استرليني فقط .

ولا ننسى ان هارولد ماكميلان كان يوما ما مديرا لسكة حديد
الغرب . وحينما اُمتت حكومة العمال السكك الحديدية منحتة تعويضا
كبيرا . وهناك امتيازات كثيرة مستترة . فمثلا سافر هارولد ماكميلان
فى احدى المرات لزيارة اللورد هوم فى اسكتلندة ، وفى اثناء الرحلة
طلب «الكيسارى» من ماكميلان ابراز تذكركه ، فعا كان من ماكميلان الا
ان اخرج من جيبه «مدالية» تخول له حق السفر مجانا على السكك الحديدية
البريطانية ، لانه كان مديرا سابقا لحدى شركات السكك الحديدية .

نفاذ ماكميلان من اليمينيين

لم يظهر بين النواب المحافظين فى عهد حكومة ماكميلان جناح يسارى
يعارضه ، كما كان يقف هو فى شبابه لمعارضة ستانلى بولدين ونيفيل
تشميرلين .

واذا كان ماكميلان قد نجا من هجوم يسارى فهو لم ينج من هجوم
اليمينيين عليه . فحينما استقال اللورد سالسبورى من الوزارة ، بسبب
اطلاق سراح الأسقف مكاريوس واعادته من سيشيل الى قبرص ، اخذ
يشن هجوما عنيفا على الحكومة استسلامها للقوى الوطنية فى افريقيا . وفى
١٧ من مارس سنة ١٩٦١ جرت مناقشة فى مجلس اللوردات وجه فيها
سالسبورى كثيرا من السخرية الى ماكلويد الذى كان وزيرا للمستعمرات
حينذاك ، قائلا انه كان يمثل دور لاعب «البردج» فى اثناء مفاوضاته فى
روديسيا . وتبين السخرية هنا اذا علمت أن ماكلويد ، قبل دخوله
البرلمان ، كان يعمل مراسلا صحفيا لنقل اخبار بعثة «البردج» لحدى
الجرائد الاسبوعية .

وقال اللورد سالسبورى ان ماكميلان كان قد اعطى ضمانا الى السير
روى ويلنسكى ، رئيس وزراء اتحاد روديسيا ونياسالاند ، بأن موضوع
الانفصال (اى حق أحد الاقاليم الثلاثة وهى روديسيا الشمالية وروديسيا
الجنوبية ونياسالاند فى الانفصال عن الاتحاد) لن يدخل فى دائرة اختصاص
لجنة مونكتون (وهى لجنة التحقيق التى بعثتها الحكومة البريطانية الى
الاتحاد) ولكنه كان بوعدة الى ويلنسكى يرمى الى شئ آخر . وهذا
ماأدركه المستولون فى روديسيا وكان سببا فى اثارة شكوكهم . وكان
ويلنسكى يحظى بتأييد قوى فى دوائر المحافظين ، ولذلك فان حملة
سالسبورى ضد ماكميلان فى مجلس العموم واللوردات سببت له الكثير .

من المتاعب . كذلك كون جماعة من النواب المحافظين ما أطلق عليه اسم «جماعة كاتانجا» للمحافظة على مصالح الرأسمالية البريطانية في هذه المنطقة وقد اضطر ماكميلان لاسترضاء هذه الجماعة على الرغم من اعلانه مرارا أنه يرفض سياسة الاسترضاء .

ولقد كان أشد ناقدى ماكميلان عنفا هو اللورد لامبتون ، فقد أخذ يشن الهجوم عليه فى البرلمان وفى صحف نيفر بروك . وحينما وقع اختيار ماكميلان على هارولد واثكنسون ليتولى وزارة الدفاع ، هاجمه لامبتون قائلا : ان ماكميلان يعتمد الى اختيار الوزراء الذين لا يعارضون سياسته بل بطبعونه طاعة عمياء ، وإذا كان قد وضع واثكنسون فى وزارة الدفاع ، ليسيطر على هذه الوزارة كما سيطر على وزارة الخارجية ، فهذه سابقة خطيرة ، اذ انها تضع فى يدي رئيس الوزراء سلطات أكبر من السلطات التى كان يتولاها السير ونستون تشرشل .

وكان لامبتون من بين أولئك الذين يقولون ان ماكميلان على استعداد لعمل كل مايرضى أمريكا . وقد كتب فى جريدة «الصنداي اكسپريس» فى عددها الصادر بتاريخ ١٨ من يونيو عام ١٩٦٠ يقول ان ماكميلان ما ان تولى الوزارة حتى أخذ يعمل على اكتساب ود أمريكا بأى ثمن ، وكانت نتيجة ذلك اجتماع برمودا ، الذى أسفر عن تضحية بريطانيا باستقلالها وبسياستها الخارجية ، كل ذلك لارضاء أمريكا .

خمس سنوات فى منصب رئاسة الوزارة

فى ١٠ من يناير سنة ١٩٦٢ أكمل هارولد ماكميلان خمس سنوات فى رئاسة الوزارة ، ويرى البعض أنه اذا قدر له النجاح فى الانتخابات القادمة فسوف يضرب الرقم القياسى بين رؤساء الوزراء البريطانيين فى عهد السلم . وتختلف تقديرات المعلقين ، ولكن الكل يجمع على أنه قد بقى فى الحكم مدة أطول مما كان يتصوره أى شخص ، فقد تولى الحكم بعد كارثة السويس عام ١٩٥٦ ، ولا يزال الى الآن .

ولقد نشرت صحيفة «الجارديان» مقالا افتتاحيا قالت فيه ان مهمة ماكميلان حينما تولى رئاسة الوزارة كانت انقاذ بريطانيا من عواقب مغامرة السويس ، وإذا كان من المقرر أنه اشترك اشتراكا كليا فى هذا العمل الجنونى مع بقية وزارة انطونى ايدن ، فلا شك فى أن سياسته فى الأشهر التى أعقبت فشل السويس ، كانت سياسة ناجحة . ولقد تعلمت بريطانيا درسا من مغامرة السويس ، وهو أنها لن تنصرف فى المستقبل باعتبارها دولة كبرى مستقلة ، الا برضاء الولايات المتحدة موافقتها . انه درس قاس على مثل ماكميلان ، ولكننا نشك فى أنه تعلمه

ولقد تبلورت نتائج هذا الدرس القاسى فى الفشل الذى أحاط بقذفه
«السهم الأزرق» وفشل المحاولة التى قام بها ماكميلان للتوفيق بين الولايات
المتحدة والاتحاد السوفىيىتى ، وفشل السياسة الاقتصادية البريطانية .
كل هذه معا أدت الى نتيجة واحدة ، وهى أن بريطانيا لم يعد لديها أمل
فى أن يكون لها تأثير حقيقى فى توجيه السياسة العالمية .

كذلك لم يعد أمام بريطانيا أمل فى الاعتماد على اقتصادها الوطنى
مالم يتم التفاهم بينها وبين السوق المشتركة .

ان فشل ماكميلان الحقيقى لا يكمن وراء سياسة الدولة الخاطئة ؛
بل يرجع الى أنه عجز عن تحديد أهداف بريطانيا ومثلها العليا ، ان شعاره
القومى لا يختلف عن شعار «جيزو» أحد سياسى فرنسا فى القرن التاسع
عشر وهو «جلب الثراء» .

وأعدت جريدة وصنداي بيكتوريال قائمة بما ل ماكميلان وما عليه
فقال : لقد زعم ماكميلان عام ١٩٥٧ انه سوف يقضى على البطالة وكانت
البطالة حينذاك ٣٨٢ ألفا ، أما اليوم (ديسمبر ١٩٦١) فهى ٣٨٩ ألفا .

وفى بيانه الانتخابى عام ١٩٥٩ أعلن أن بريطانيا لم يسبق لها أن
بلغت درجة الرخاء والاستقرار الاقتصادى التى بلغتها الآن ، ولكن الأسعار
أخذت فى الصعود المطرد ، واضطر ماكميلان لتخفيض اعتمادات بعض
المشروعات الصحية .

وقد وعد ماكميلان بأن يجدد نشاط الصناعة البريطانية ، ولكن
المنتجات الصناعية البريطانية تبلغ فى الوقت الحاضر سُدس اجمالى
الصادرات الصناعية العالمية فى حين كانت من قبل ربع هذه الصادرات .

وفى سنة ١٩٥٩ قرر أن بريطانيا تقدم التأييد الكامل للتوفيق
والتصالح متمشية فى ذلك مع شعارات الامم المتحدة ، ولكن وزير خارجيته
اللورد هيو ، شئ منذ عهد قريب هجوما عنيفا على الأسس التى قامت
عليها الامم المتحدة .

وأخذ ماكميلان يسوف فى منح قبرص استقلالها بحجة أن الاتراك
واليونانيين سوف يذبح بعضهم بعضا ، ولكن قبرص استقلت أخيرا دون
أن تحدث هذه المذابح .

وفى الوقت الذى كان فيه سالازار دكتاتور البرتغال يذبح الرجال
والنساء والأطفال بلا رحمة فى انجولا ، بعث ماكميلان وزير خارجيته
الى البرتغال فى بعثة «صدقة وود» .

وكان وزير مستعمراته لينوكس بويد قد أوشك أن يدبر مذبحة
فى نياسالاند ولكن ماكميلان أظله بحمايته ورفعاه الى مراتب النبيل .

وكان ماكميلان ينفى نفيا قاطعا أن القاذفات الأمريكية تحلق فوق
بريطانيا محملة بالقنابل الهيدروجينية ، ولكن لما ضيق عليه أعضاء البرلمان
الخناق استطاعوا أن ينتزعوا منه الحقيقة المزعرة .

وخير ما قيل عن ماكملان هو ما كتبه هارولد ويلسون اذ قال : ان هؤلاء الذين يمثلون بريطانيا الارستوقراطية يجب أن يتذكروا أن عصر بريطانيا الارستوقراطية قد انتهى ، ونحن الآن في ظل حكومة تعيش على اقتراض المال وتحاول مجازاة سير الزمان .

وكتب اللورد الترنشام مقالا مسهبا في صحيفة «الديلي اكسبريس» جاء فيه مايلي :

ان سياسة ماكملان الخارجية اشد عرضة للنقد من سياسته الداخلية . حقيقة أنه تخلص من كثير من الحماقات الجنونية التي سولت له الاشتراك في مغامرة السويس الخادعة ، ولكنه لا يزال يسعى الى المجد دون أن تكون لديه القوة التي تبلغه هدفه .

وفي فترة الركود في انتاج الاسلحة النووية عملت الدول الى تقوية أسلحتها التقليدية ، ولكن ماكملان أخذ يجرى التخفيض في الجيش البريطاني حتى هبط بالدبلوماسية البريطانية الى درجة مزعجة من الضعف وأسوأ ما في ذلك أنه ضحى بالخدمة العسكرية الاجبارية في سبيل كسب أصوات الناخبين .

الزعيم المحزن

من الصعوبة بمكان أن نجد وجها للشبه بين هارولد ماكملان والرئيس الأمريكي الشهير ابراهام لينكولن ، ولكن ماكملان يحاول التشبه بلينكولن على الرغم مما بينهما من بون شاسع . ففي المؤتمر السنوي لل نقابيين المؤيدين لحزب المحافظين الذي عقد في ١٩ من مارس ١٩٦٠ وجه ماكملان خطابا للمؤتمرين استشهد فيه بالعبارة المشهورة التي وردت على لسان لينكولن « قد تستطيع أن تخدع جميع الناس في بعض الاوقات ، وقد تستطيع أن تخدع بعض الناس في كل الاوقات ، ولكنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس في جميع الاوقات »

والغريب أن ماكملان الذي استشهد بهذه الحكمة الخالدة يسعى الى العمل بنقيضها ، فهو يحاول أن يخدع كل الناس في جميع الاوقات !

ان ماكملان لم يشترك في المؤتمر السابق للنقابيات ، ولكنه بعث اليهم برسالة ذكر فيها أنهم « طليعة الجيش الظافر » وكان يقصد بذلك اعدادهم للحملة الانتخابية ، ولما فاز في الانتخابات وجه اليهم كلمة شكر على مساهمتهم في تحقيق النصر للمحافظين ، كذلك وجه كلمة شكر الى رجال الاعمال وغيرهم من الرأسماليين الذين ساهموا بأموالهم في حملة الاعلان الضخمة التي سبقت الانتخابات العامة .

ولكن هؤلاء النقابيين ، الذين أحرزوا النصر لماكملان وحزب المحافظين في الانتخابات العامة ، لم يفوزوا بأكثر من عباراتثناء ، ذلك

أن هارولد ماكميلان وحزبه لم يهيئوا لهم مقاعد في مجلس العموم ، ولو كان ماكميلان حقا يؤمن بالنقابات والنقابية لأفرد للنقائبيين المحافظين دوائر انتخابية خاصة في التنظيمات الحزبية التي يجريها المحافظون قبل الانتخابات ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .

لننتقل الى ناحية أخرى ، وهي تشكيل ماكميلان لوزارته الجديدة فحينما أراد ماكميلان اختيار وزرائه ، انتقاهم جميعا من خريجي كلية إيتون ، حتى وزير العمل نفسه من طلبة إيتون السابقين ، أما النقابيون فلم يكونوا موضع تفكيره حين اختيار وزرائه .

وليس هذا بعجيب ، فحزب المحافظين هو حزب أصحاب المشروعات لاحتزب الاجراء ، وهو يصير على الا يكشف دفائره خشية أن يفضح أمر الانتخابات الضخمة التي تقدمها إتراسمالية السيطرة لحزينة حزب المحافظين .

وفي أثناء الخطاب الذي القاه ماكميلان في مؤتمر النقابات عام ١٩٦٠ استنكر الرأي القائل بأن هناك تمازضا أساسيا بين النقابية وبين حزب المحافظين ، وحجته في ذلك أن المحافظين كانوا طوال تاريخهم يعطون على العمال ويؤيدون حقهم في التنظيم النقابي ، وضرب مثلا لذلك بأن القوانين التي نكرم الاجتماعات التي يعقدها العمال ألغيت على أيدي حكومة اللورد ليفربول المحافظة عام ١٨٢٤ .

وردنا على ذلك هو أن ماكميلان اذا كان حقا متعمقا في التاريخ كما يشيرون عنه ، فلا ندرى أى كتب يقرأ . فلو أنه عنى بقراءة تاريخ الحركة النقابية في بريطانيا لأدرك أنها كانت سسلسلة من الصراع بين أصحاب الاعمال من المحافظين والعمال الذين يخوضون المعركة تلو المعركة ضد هؤلاء المحافظين للحصول على الكفاف . ولو أنه كلف نفسه بعض المشقة وقرا تاريخ سكة حديد القرب في بريطانيا ، وهي الشركة الكبرى التي كان هو مديرا لها ، اذن لأدرك أن مديري هذه الشركة من المحافظين رفضوا بأصرار الاعتراف لعمال الشركة بحق تكوين نقابة ، ولم يفعلوا ذلك الا مرغمين بعد الاضراب الذي حدث عام ١٩١٠ . وليذكر ماكميلان أن أعضاء مجلس العموم من المحافظين ظلوا طوال قرن كامل يعتبرون نقابات العمال عدوهم الطبيعي . واذا أردت أن تعرف موقف المحافظين على حقيقته في الوقت الحاضر فما عليك الا مراقبة مايفعله المحافظون حينما يثار النزاع بين العمال وأصحاب الاعمال . واذا كانت نقابات العمال على شيء من القوة في الوقت الحاضر فان هذا لا يرجع الى المساعدات التي تلقتها من حكومات المحافظين ، ولكنه يرجع الى كفاحها المتواصل لعدة أجيال .

أما وقد اتضحت الحقيقة فان ماكميلان اما أن يكون جاهلا بالتاريخ وأما أنه يفترض في مستمعيه من النقائبيين الجهل بحيث لا يستطيعون اكتشاف أكاذيبه .

لقد أخذ ماكميلان يزهو أمام أولئك المأجورين من النقائبيين بأن حكومته سوف تحقق «العمالة الكاملة» وأخذ في العهد الاخير يردد هذه

العبارة في مجلس العموم . ولننظر الى موقفه السابق في مجلس العموم قبل أن يصبح رئيسا للوزارة .

لقد كان في ذلك الوقت يلقي الخطب الزنانة قائلا ان العمالة الكاملة تتحقق اذا لم ترتفع الاسعار واذا لم يكن هناك تضخم نقدي . ولكن ما الذي يجري في الوقت الحاضر ؟ ان العمال البريطانيين يعلنون الاضراب بين حين وحين مطالبين بزيادة الاجور لامن أجل الرفاهية ولكن لواجهة ارتفاع اجور المساكن الذي جاء نتيجة لقانون الاجارات الجديد .

ولنا أن نتساءل : أين كان هؤلاء النقابيون المحافظون (الماجورون) يوم قدمت حكومة ماكميلان قانون الاجارات الجديد الى مجلس العموم ؟ وهل استشارهم ماكميلان في هذا الامر ؟ أو هل استشار أية هيئة عمالية ؟ .

ولقد صرح ماكميلان لهؤلاء النقابيين الماجورين بأن الانتاج البريطاني في ازدياد مطرد نتيجة للدفع والنشاط اللذين بعثتهما فيه حكومة المحافظين ! ولكن ، ألا يعلم ماكميلان ان الاقتصاد البريطاني في الوقت الحاضر يهتز من ضعف الأسس التي أقيم عليها ؟

ان ماكميلان نفسه الذي أدلى بهذه التصريحات عاد بعد عامين ليعلن ان بريطانيا لن ترفع أجور عمال السكك الحديدية ولا عمال النقل البري ولا عمال البريد ، لانه ليس لديها المال اللازم لتغطية هذه الزيادة .

ولقد ظل المحافظون يوجهون السياسة الاقتصادية البريطانية من غير تخطيط طوال عشر سنوات توالى فيها على البلاد الازمات المالية والاقتصادية . وأخيرا استيقظ ماكميلان أو على الأقل أيقظته من سباته أجراس الخطر فبدأ يشكل هيئة للتخطيط .

وما دمنا نتحدث عن زعامة ماكميلان فلنتعرض لنقطة هامة وهي مدى قدرته الخطائية ، وماكميلان من هذه الناحية لا يمكن ان يوضع في الكفة الراجحة . ان القدرة الخطائية تتوقف على مدى ايمان الخطيب بما يقول ، وماكميلان في هذه الناحية لا يخرج عن دور الممثل ، وقد يكون بارعا ولكنه لن يكون مصدر الهام .

لقد ألقى ماكميلان خطابا في المؤتمر الوطني لشباب المحافظين بتاريخ ٢٥ من فبراير عام ١٩٦١ وفي هذا الخطاب قدم عرضا تاريخيا لحزب المحافظين وما ساهم به من اصلاحات هائلة اجتماعية وسياسية واقتصادية وما آداه من خدمات للعمال في المصنع والمنجم والحقل .

ولكن ماكميلان هو نفسه الذي كان يشن هجوما عنيفا على حزب المحافظين في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية متهما الحزب بتقصيره المؤلم في أداء الخدمات الاجتماعية وفي رعاية الطبقات العاملة . فأي الماكميلانيين نصدق : ماكميلان عضو مجلس العموم في فترة ما قبل الحرب ، أو ماكميلان رئيس الوزراء في فترة ما بعدها ؟

لقد عرض ماكميلان في خطابه أمام شباب المحافظين لسؤال دقيق ،

وهو لماذا لم ينضم الى حزب العمال فى اثناء نشأته الاولى ؛ ورد على ذلك قائلا : ان الاشتراكية الماركسية غريبة على انجلترا ، وان كارل ماركس نفسه ليس بريطانيا .

وقياسا على ذلك، فعليه ان يلفظ الكتاب المقدس ، لانه ليس انجليزيا وان يكف عن اعتبار دزرائيلى نبى السياسة البريطانية ، لانه ليس من عنصر بريطاني .

لقد ذكر ماكميلان فى خطابه ان حزب المحافظين فى بريطانيا كان طليعة التقدم فى خلال القرن التاسع عشر . ونحن نسأله أيضا ، ألم يقرأ شيئا عن نشاط التقدميين فى القرن التاسع عشر من أمثال كارل ماركس وفردريك انجلز وأتباعهما ؟

اننا لاندري : بماذا كان يرد ماكميلان ؟ ولعله يحاول مع شباب المحافظين ماحاوله مع النقابيين الماجورين من تطبيق «حكيمته» القاتلة: «تستطيع أن تتخدع جميع الناس فى كل وقت» .

رجل أوروبا المريض

فى يوليو ١٩٦٦ أصبح من الواضح أن بريطانيا تنزلق مرة أخرى نحو أزمة اقتصادية ، ففى ٢٥ من يوليو وقف وزير المالية سلوين لويد ، على منبر الخطابة فى مجلس العموم ليعلن البيان الخاص بهذه الأزمة ، ويقرر أن هذا هو ثالث عام يتبين فيه العجز فى ميزان المدفوعات ، وإذا وازنا بيان سلوين لويد عن الحالة الاقتصادية بالبيان الذى قدمه ماكميلان فى الحملة الانتخابية نجد الفرق كبيرا بين الحالتين ؛ فقد هبط احتياطي بريطانيا من الذهب والدولار بمقدار ١٦٤ مليون جنيهه استرلينى فى الشهور الستة السابقة . وقدم سلوين لويد اقتراحات من أهمها أن يجرى تخطيط اقتصادى تشرف الدولة على تطبيقه . والغريب أن المحافظين ظلوا سنوات كثيرة يسخرون من فكرة التخطيط الاقتصادى ، فماذا هم قائلون اليوم ووزير ماليتهم يدعو الى التخطيط ؟

وتحدث سلوين لويد فى بيانه عن الاجراءات التى يجب اتخاذها للإشراف على الاقتصاد الرأسمالى وعلى الارباح وخاصة الارباح الناتجة عن المضاربات وغيرها من وسائل التهرب من الضرائب ، وطالب بتخفيض عام فى المصروفات وخاصة ميزانية الدفاع قائلا : ان الثمانين مليون جنيهه استرلينى التى تنفق سنويا على التزامات بريطانيا فى حلف الاطلنطى وبخاصة ماينفق على الاحتفاظ بقوات بريطانية فى ألمانيا يجب ان توقفت عند حدهميين . وخلص من ذلك كله الى أن المبالغ الضخمة التى يستهلكها بند المصروفات « تؤثر تأثيرا سيئا على ميزان المدفوعات ، ويجب اتخاذ اجراء بشأنها فى الميزانية التالية » .

هذه وغيرها هى الاجراءات التى اقترحتها الحكومة لمعالجة الأزمة

المالية والاقتصادية . وفي أثناء مناقشة هذه الميزانية في مجلس العموم تحدث هارولد ويلسون باسم المعارضة فقال : من الغريب أن يتحدث إلينا اليوم وزير المالية بهذه اللهجة المحزنة في حين أن رئيس وزرائه كان قد أعلن في أثناء الانتخابات أن الاقتصاد البريطاني لم يكن يوماً ما أسلم منه اليوم ، وإن النقد البريطاني ثابت وميزان المدفوعات قوى .

والقي ويلسون عبء المسئولية كلها على عاتق ماكملان قائلا : انه هو الذي غرر بالأمة ودفع بها إلى التواكل ، وقال ويلسون في خطابه :

حينما تولى ماكملان رئاسة الوزارة ظهر على شاشة التليفزيون ليوحه حديثاً إلى الأمة بأنه سوف يعمل على استعادة عظمة بريطانيا . ولكنه اليوم قضى على سلامة اقتصادياتنا وعرضها إلى أشد الأخطار ، ونحن الآن مشرفون على حالة نستحق معها تلك الوصمة ، التي وصف بها القيصر نيقولا الامبراطورية العثمانية المتداعية ، إذ قال : « انها رجل أوروبا المريض » .

وأنا لآلقي القول جزافاً كما انه ليس من نسج الخيال . فان إحدى المجلات الألمانية الكبرى نشرت مقالاً افتتاحياً عن بريطانيا تحت عنوان : « رجل أوروبا المريض » وأنا لأقول أن البريطاني قد فقد حيويته أو قدرته على الابتداع والابتكار ، ولكن الخطأ يرجع إلى افتقارنا للزعامة الملهمة والدعوة إلى الخدمة العامة والتضحية بالمصالح الفردية في سبيل المصلحة الجماعية تلك هي الصفات اللازمة ولكن الحكومة عاجزة عن اتخاذها .

ووقف ماكملان للرد على حملة هارولد ويلسون وقد وجد صعوبة كبيرة في اعداد الرد المقنع ، ولكنه قرر أن يماثله في سبتمبر عام ١٩٥٩ كان صحيحاً في حينه ، وإن ماقلب ميزان المدفوعات رأساً على عقب هو المتاعب الخارجية التي لادخل لبريطانيا فيها ، لان بعضها نشأ من التأمين وهبوط أسعار البترول . وأخيراً لجأ إلى العبارات المزخرفة التي لا تغني عن الازمة الاقتصادية شيئاً . وبعدها انتقل إلى السخرية من وزارة العمال وهو موضوع معاد مكرر كان ماكملان يلجأ إليه كلما أعجزته الحجة وأعوذه الدليل .

ولقد كان ماكملان في نقده اللاذع لحكومة العمال يتحدث دائماً عن موضوع التأمين وقشله . ولكن هل فشل العمال حقاً في موضوع التأمين ؟ وهل العمال وحدهم أصحاب فكرة التأمين ؟

لقد تم تأمين السمك الحديدية في أثناء الحرب ، وكانت فكرة تأمين هذا المرفق مبدأ يدين به تشرشل قبل ذلك بكثير ، بل كان يؤمن به جلادستون من قبله . ولو كان هارولد ماكملان رئيساً للوزراء عام ١٩٤٥ أي بعد الحرب مباشرة ماكان في وسعه إلا أن يؤم السمك الحديدية .

أما عن تأمين مناجم الفحم فقد كان هذا رأي لجنة ريد ، ولم يكن أمام هذه اللجنة إلا أحد البدلين ، فما أن تؤم الفحم وأما أن تعيد تنظيمه على أن تتلقى صناعة استخراج الفحم إعانة حكومية ، فاختارت الأمر الأول .

وما طبق على الفحم طبق على صناعة الكهرباء والغاز في صناعات كان ماكميلان قبل الحرب قد طالب بأنها يجب أن تضم الى الملكية العامة .

ولنا سؤال هنا ، وهو : اذا كان حقا ما يقوله المحافظون من أن التأميم قد فشل فشلا تاما ، فلماذا لم يلغوا تأميم كل ما أممته حكومة العمال ؟ .

ان ماكميلان كان من أعنف ناقدى حكومة العمال في موضوع التأميم . وحينما تولى وزارة الصحة والاسكان وتولى الاشراف على بناء المساكن طبقا للمشروع الفردى ، أخذ يزعم بأنه استطاع فى أثناء توليه المنصب أن ينشئ ٣٠٠ ألف مسكن ، ولكن يلاحظ هنا أنه منذ تولى المشروع الفردى عملية الاسكان نقص عدد المساكن المنشأة الى حد كبير .

وكان المحافظون يعارضون تأميم الخدمات الصحية وإنشاء ما يسمى بدولة الرفاهية أو حكومة الخدمات الاجتماعية ، ولكنهم حينما تولوا الحكم لم يستطيعوا إلغاء تأميم هذه الخدمات خوف اثاره الرأى العام ، ومعنى ذلك أن الرأى العام كان يؤيد عملية التأميم .

فإذا انتقلنا الى السياسة الخارجية نجد أن ماكميلان ، بعد أن قضى فى رئاسة الوزارة خمس سنوات ، قام بزيارة لاديناور فى يون . وقالت صحيفة « الديلى ميل » حينذاك ، ان ماكميلان ذهب الى ألمانيا ليبلغ أديناور أن بريطانيا أصبحت عاجزة عن الاتفاق على قواتها المربطة فى ألمانيا . وقد أبدى أديناور استعداداه لمساعدة بريطانيا بشراء أسلحة بريطانية . وهكذا أصبحت ألمانيا بعد خمسة عشر عاماً من هزيمتها الساحقة ، فى مركز يسمح لها باقراض بريطانيا والمساهمة فى تفريغ أزمته المالية . لا ، بل ان بريطانيا العظمى فى عهد ماكميلان لم تستنكف مد يدها الى سويسرا الصغيرة لتقترض منها المال .

وفى الفترة التى قضاها المحافظون فى الحكم أنفقت بريطانيا على الدفاع ١٦ ألف مليون جنيه استرليني . ومع ذلك لم تستطع اعداد أى وسيلة ناجحة للدفاع عن نفسها ضد الحرب النووية ، ويكفى أن تنطلق الصواريخ حاملة عددا من القنابل الهيدروجينية لتدمر بريطانيا كلها .

والحقيقة أن بريطانيا أصبحت ذنبا لأمريكا ، وليس هارولد ماكميلان فى نظر جون كيندى ، بأكثر من ولتر أولبرخت فى نظر نيكيتا خروشوف . بل ان قطاعا من الرأى العام العسكرى فى أمريكا يرى أن إنجلترا ليست أكثر من قاعدة فى غرب أوروبا وأنه من الممكن الاستغناء عنها عند اللزوم .

والرأى السائد هو أن أمريكا قد ألزمت بريطانيا بالانضمام الى السوق الأوروبية المشتركة حتى تصبح عضوا فى الجهاز الاقتصادى لغرب أوروبا ، والذي حفز أمريكا على ذلك هو أغراض دفاعية محضة .

وإذا ما انضمت بريطانيا الى السوق المشتركة فإن استقلالها يصبح فى زوايا النسيان ، ويصبح مجلس العموم البريطانى العريق هيئة نيابية اقليمية للتشريع المحلى فقط .

ولقد كتب جون جونز مقالا في صحف «بيفر بروك» تحت عنوان «آخر رئيس وزراء» ولم يكن هدف الكاتب أن يكتب عن بريطانيا وقد دمرتها الحرب النووية ولكنه يكتب عن بريطانيا وقد فقدت هيبتها وسمعتها ومركزها بحيث أصبح رئيس وزرائها وقد جرد مما كان له من أهمية دولية . ويقول الكاتب : ان أول رئيس وزراء يتناوله هذا الحرمان هو هارولد ماكميلان ، اذا قدر له أن يبقى في منصبه بعد الانتخابات الجديدة . وعلى أية حال فهذه تكهنات عن المستقبل ، اما عن الحاضر فان هارولد ماكميلان هو بحق السياسي الذي لعب دورا هاما في الحوادث التي أدت ببريطانيا الى أن تصبح « رجل أوروبا المريض » .

السوق المشتركة أو الكومنولث

في آخر يوليو ، قبيل العطلة البرلمانية الصيفية ، وقف ماكميلان ليلقي في مجلس العموم بيانا عن سياسة الحكومة البريطانية تجاه المجتمع الاقتصادي الاوربي (السوق الاوربية المشتركة) . وقد أعلن ماكميلان أن الحكومة قد استقر رأيها على تقديم طلب للانضمام للسوق . وكان هذا البيان غير متوقع ولذلك ازدحم المجلس بالزائرين للاستماع الى ذلك الخطاب التاريخي .

وقد جاء في خطاب ماكميلان ما يلي :

ان العلاقات المستقبلية بين السوق الاوربية المشتركة والمملكة المتحدة والكومنولث وبقية أوروبا الغربية هي مسائل ذات أهمية حيوية بالنسبة لبريطانيا ، بل بالنسبة لجميع بلاد العالم الحر . ان هذا موضوع سياسي بقدر ما هو موضوع اقتصادي ، ومع أن معاهدة روما ذات صبغة اقتصادية فلها أيضا هدف سياسي كبير ، وهو تعزيز الوحدة والاستقرار في أوروبا الغربية ، وهو عامل حيوي في الكفاح من أجل الحرية والتقدم . والعالم الآن يتجه نحو التكتل والعمل المشترك بين مجموعة من الدول من أجل الصالح المشترك . وما دام الامر كذلك فمن واجبنا أن نساهم في تعزيز وحدة أوروبا ، وأن نرتبط معها بأوثق الروابط .

ولكن ينبغي أن نفهم أنه اذا كان ارتباطنا بأوروبا سوف يسفر عن فسخ العلاقات بيننا وبين الكومنولث ، فالحسارة أكبر من الكسب .

ثم انتقل الى الميزات التي تجنيها بريطانيا من الانضمام الى السوق الاوربية المشتركة ، فقال : ان هذه السوق الكبرى سوف تضم نحو ثلاثمائة مليون نفس من الشعوب ذات الاقتصاد المتقدم ، وهذا مما يؤدي الى توسع اقتصادي كبير ، وإلى زيادة الطلب على منتجات كبيرة الكمية من بلاد العالم الأخرى ، وهذا سوف يضاعف حجم التجارة الدولية ، وينتج آفاقا جديدة امام البلاد المتخلفة .

ولكن لما كانت مصالح بلاد الكومنولث في الاعتبار الاول فلن تقدم أية حكومة بريطانية بإجراء اتفاق مع بلاد السوق المشتركة الا بعد أن تجرى محادثات سابقة مع بلاد الكومنولث لمراعاة مطالب هذه البلاد ، كما تجرى محادثات مع بلاد منطقة التجارة الاوربية الحرة في الدول السبع ، وبجانب ذلك كله حاجات الزراعة البريطانية .

وتقديرا لكل هذه الاعتبارات فان الحكومة البريطانية قد قررت أن تتقدم بطلب انضمام الى السوق المشتركة استنادا الى المادة ٢٥٧ من معاهدة روما مع الاحتفاظ برعاية مصالح المملكة المتحدة والكومنولث ومنطقة التجارة الاوربية الحرة .

والسؤال الآن : كيف تستطيع الحكومة البريطانية الانضمام الى السوق المشتركة مع حماية مصالح الكومنولث وحماية المنتجات الزراعية البريطانية ؟

لقد لزم هيو جيتسكيل ، زعيم العمال ، الصمت ، ووقف انطوني فل ، أحد النواب المحافظين ، ليقول لماكيلان ان بيانه هو أركان المجلس هو عتيقا ، وأن ما هو قادم عليه يجعل رئيس وزراء بريطانيا كارثة وطنية . وهنا ثار ماكيلان وحاول ان يصدر امره الى النائب بالجلوس ، ولكن العضو المحافظ رفض قائلا : ليس من حقك أن تصدر لي مثل هذا الامر ، انه من حق رئيس المجلس فقط .

ومضى العضو يقول : الا يعلم رئيس الوزراء أنه يقام بمصالح ٦٣٠ مليونا من أبناء الكومنولث ، وأن هذه أكبر كارثة عرفتها بريطانيا منذ أجيال ؟ الا يعلم رئيس الوزراء أنه من المستحيل ، في ظل معاهدة روما الحالية ، حماية المنتجات الزراعية البريطانية ؟ وفي هذه الحالة حل رئيس وزراء بريطانيا لديه ما يكفي من النفوذ لكي يستبدل بمعاهدة روما معاهدة أخرى تكفل حماية مصالح الكومنولث والمنتجات الزراعية البريطانية ؟

وفي الوقت الذي واجه ماكيلان هذه العاصفة قابلته عاصفة شديدة أخرى ، وهي أن مائة من النواب المحافظين اعترضوا على الاجراء الذي كانت الحكومة تزمع اتخاذه بإرسال قنابل الى قوات الامم المتحدة في الكونغو . وكانت الحكومة قد أعلنت في برنامجها الانتخابي أنها سوف تقف دائما بجانب الامم المتحدة ولكن فريقا كبيرا من النواب المحافظين استطاعوا تكوين فريق برلماني لمعارضة أي اجراء يتخذ ضد كاتانجا ، وقد سميت هذه الجماعة « فريق كاتانجا » وقد اضطرت حكومة ماكيلان للاذعان لمطالبهم .

وفي مقابل اذعان ماكيلان لفريق كاتانجا أوقفوا حملة المعارضة ضده حين مناقشة السوق الاوربية المشتركة ، وهكذا استطاع ماكيلان بمناورات أن يتفادى مؤقتا موجة المعارضة القوية لمشروعه الخاص بالانضمام الى السوق الاوربية المشتركة .

ولكن كيف نجا ماكميلان من العاصفة ؟

لقد ضحى بالأمم المتحدة في وقت كانت في أشد الحاجة فيه الى التأييد ، لأنها لا تمر بأزمة عابرة ، بل بأزمة تاريخية بعيدة المدى ، هي أزمة تقرير مصير الحرية في الكونغو والارتفاع به فوق مصالح الرأسمالية والاستثمارات الأوروبية .

التجارب النووية الروسية

والتي هي من النوعية النووية في جزيرة كرسنا

في ٣١ من أكتوبر سنة ١٩٦١ ندد ماكميلان في مجلس العموم بموقف الاتحاد السوفييتي اذ انسحب من مؤتمر جنيف لوقف التجارب النووية واستأنف تفجيراته في المتجمد الشمالي .

ولكن اذا كان ساخطا على الاتحاد السوفييتي لاستئنافه التجارب النووية ، أيكف هو عن هذه التفجيرات أم يستأنفها ؟

لننظر الى موقفه أمام البرلمان . انه موقف الدكتور جيكل في صراعه مع المستمر هايد ، ولننظر الى من لايهما تكون القلبة .

لقد مضى ماكميلان يتحدث عن الجريمة الكبرى التي ارتكبتها الاتحاد السوفييتي في حق الانسانية باستئنافه التفجير النووي في المنطقة القطبية ، ثم دار طويلا حول الموقف وانتهى بالقول الى انه لكي يمكن المحافظة على توازن القوى فان بريطانيا (وأمريكا) على استعداد لاستئناف التجارب النووية التي سوف تلوث الجو وتلوث لبن الاطفال كما فعلت التجارب السوفيتية .

وبعد فترة قصيرة اجتمع مع جون كنيدى في برمودا ، وكان من بين ما دارت حوله محادثاتهما العرض الذي تقدم به كنيدى اليه ، كي توافق بريطانيا على ان تستأنف أمريكا تجاربها النووية في جزيرة كريسماس بالمحيط الباسفيكي .

وفي ٨ من فبراير الماضي وقف ماكميلان ليعلم في مجلس العموم أن الحكومة البريطانية قد وافقت على طلب أمريكا باستخدام جزيرة كريسماس لتفجير النوى .

ولقد تحدث ماكميلان ، بعد عودته من برمودا ، عن «سباق التسلح النووي الرهيب» ولكنه من ناحية أخرى وافق على منح الغواصات الذرية الأمريكية التي تحمل قذيفة « بولاريس » قاعدة على ساحل اسكتلندا ، وهو بهذا العمل يساهم مساهمة فعالة في سباق التسلح النووي ، لأن كل غواصة ذرية تحمل قذائف تستطيع تدمير ١٢ مدينة بأكملها .

وقبل أن يختتم ماكميلان خطابه وقف أحد أعضاء المجلس يسأله :
إذا كان لابد من التجارب النووية الهيدروجينية فوق جزيرة «كريسماس»
أفليس من المستحسن تغيير اسمها حتى لا يفترون اسم رسول السلام
بالتفجيرات النووية ؟

بداية النهاية

في أوائل عام ١٩٦٢ القى ماكميلان، أمام شاشة التليفزيون، حديثا
سياسيا وقد علقت صحيفة « الديلي تلغراف » قائلة : لقد بدأ ماكميلان ،
وهو في سن الثامنة والستين . كأنه يصغر هذه السن بعشرين سنة، فهل
يا ترى جد يحدث دولي سعيد أعاد اليه شبابه ، أو أن هذه مهارة جديدة
لخبراء التجميل الذين أعطوه على الشاشة من وسائل التجميل ما تتيحه
المساحيق والدهون لمثلة عجوز قبل أن تصعد خشبة المسرح ؟ .

ولكن هذا المظهر الزائف لم يخف على رجال الصحافة ، وبخاصة
معلق « الصنداي تلغراف » و « الإيزوفر » اذ قررا أن ماكميلان ، سواء
حينما ظهر على شاشة التليفزيون ليلقى حديثه السياسي أو حينما ذهب
الى اكسفورد ليلقى كلمته على الخريجين ، فإن الناظر اليه يشعر بأنه
رجل عجوز يسير بخطى سريعة نحو الفناء .

ولقد أجرت إحدى هيئات الإحصاءات تجربة لمعرفة مدى اقبال اصحاب
أجهزة التليفزيون على مشاهدة ماكميلان حينلقاء خطاب سياسي هام
وجعلت التجربة تدور حول اجتماعه مع كينيدي في برمودا . وقد تبين لها
ما يلي :-

حينما بدأ الحديث كان مائة ألف جهاز تليفزيون مفتوحة على
القناة « ١ » .

وحينما بدأ الحديث عن الدول الناشئة في افريقيا وآسيا غادر
التليفزيون ٣٣٦ ألفا ، ولما بدأ يتحدث عن اجتماعه مع كينيدي غادر المكار
مائة ألف آخرون . وحينما بدأ يعلق على اجتماعه مع كينيدي قائلا : لقد
أجرينا أحاديث مشمرة ، لم يبق أمام أجهزة التليفزيون الا عدد قليل .

وتستخلص هذه الهيئة من تجاربها أن ماكميلان لن يقدر له النجاح
في الانتخابات القادمة ، لانه لم يعد في استطاعته اجتذاب مستمعيه ولا
مشاهديه .

وليس هذا رأى هيئات الإحصاء فقط ، بل ان صحف المحافظين نفسها
لديها هذا الشعور، فقد كتبت «الصنداي تايمز» تقول انه من غير المحتمل
أن تبقى حكومة ماكميلان بعد الانتخابات القادمة . وفي مناسبة أخرى علقت
الصحيفة نفسها على الموقف قائلة :

« في عام ١٩٥٥ طلب المحافظون من ونستون تشرشل أن يعتزل السياسة حتى يستطيعوا الفوز في الانتخابات ، ويبدو أنهم عام ١٩٦٢ سوف يتقدمون الى ماكميلان بالطلب نفسه ، على أمل أن يفوزوا في الانتخابات القادمة . ولن يكون المحافظون من الخشونة بحيث يطردون ماكميلان طردا ، ولكنهم سوف يزودونه بأحدى مراتب النبلاء ، ويهيئون له مقعدا في مجلس اللوردات حتى تتاح له الفرصة لكتابة مذكراته .

... لقد صرح ماكميلان مرارا بأنه لن يكتب مذكراته ، ولكن الرأى العام في شوق لقراءة هذه المذكرات ، لا لأنها مليئة بالحوادث المثيرة ، كما هو الحال في مذكرات تشرشل، ولكنها على الأقل سوف تلقى ضوءا على ما كان ماكميلان يهرب من الاجابة عنه حينما يخرجه النواب في مجلس العموم . ولعله يطلع الرأى العام البريطاني على التاريخ السرى لمفامرة السويس التي كانت خاتمة تاريخنا الامبراطورى ، ولعله أيضا يطلعنا على أسرار رحلته الأخيرة الى موسكو وما جرى من أحداث بينه وبين خروشوف وميكويان ، ولعله أخيرا يطلعنا على ذلك السر العجيب ، وهو أن ماكميلان الشاب التقدمى الثائر الذى يجنح الى اليسارية ويدعو الى رعاية الطبقة الكادحة ، يتقلب الى محافظ يمينى عريق ، ويصبح أمل أصحاب الألقاب وأرباب الجاه والثراء ، والمتحدث باسم الرأسمالية البريطانية البالية التى صارت من المناقضات الاجتماعية في النصف الأخير من القرن العشرين .

اذن فليكتب ماكميلان مذكراته ، لعل فيها عبرة وعظة لمن يخلفه على مقعده في « داوننج ستريت » .

تم الكتاب

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
مقدمة المؤلف	٧
في الطريق الى انجلترا	١١
محاظ من الجناح اليسارى	١٥
الاتجاه الى التخطيط	١٦
التمرد على الحزب	١٨
الطريق الوسط	١٩
حرب وما بعدها	٢١
نحو الحرب الباردة	٢٢
برنامج الاسكان	٢٥
ظل القنبلة	٢٦
الضرب على وتر واحد مع مولوتوف	٢٣
ارباح السندات وأمنية حالم	٢٤
مغامرة السويس	٣٦
بتلر أو ماكميلان	٤٢
سيد القلعة	٤٤
استراتيجية الرادع النووى	٤٦
الدكتور جيكل ومستر هايد ذو الوجهين	٥١
رحلة ماكميلان الى الاتحاد السوفيتى	٥٤
يسع رئيس الوزراء	٦٠
ريح التغيير تهب على افريقيا	٦٢
السير فى ركاب أمريكا	٦٤
بين اصحاب الملايين	٦٧
نقاد ماكميلان من اليعنيين	٦٨
خمس سنوات فى منصب رئاسة الوزارة	٦٩
الزعيم الحزبى	٧١
رجل أوروبا المريض	٧٤
السوق المشتركة أو الكومنولث	٧٧
التجارب النووية الروسية والتفجيرات النووية الامريكية فى جزيرة كرويسسماس	٧٩
بداية النهاية	٨٠

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة لمقاولي

القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس في مناقصة عامة عملية
انشاء كوبرى الرسوة بمدخل بور سعيد مكون من فتحتين
متحركتين وأربع فتحات ثابتة من الخرسانة المسلحة
وبرتكر على قيسونات خرسانية .

ويمكن الحصول على مستندات المناقصة بالحضور
شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية (التخطيط والابحاث)
.. وذلك نظير مبلغ خمسة وعشرين جنيها وتقدم العطاءات
باسم السيد/رئيس هيئة قناة السويس (التخطيط
والابحاث) في ميعاد اقضاء الساعة الثانية عشرة ظهرا يوم
الاثنين ١٥ أبريل ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائي قدره ثلاثة
آلاف جنيه .. ولن يلتفت الى اى عطاء يقدم بعد هذا
الموعد او غير مصحوب بالتأمين المذكور .



مطابق الدار القومية

١٥٧ شارع مجيد - روش الفرج

تلفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٤
٤٠٨١٤ - ٤٠٥٨٨

